الكتاب الثاني

الفكر السياسى

- الفكر السياسى الاغريقى

  افلاطون وارسطو
- الفكر السياسى الرومانى
- الفكر السياسى المسيحى
- الفكر السياسى الاسلامى
- الفكر السياسى الحديث
  - الفكر المطلق : ميكيافيللى ـ جان بودان ـ

    توماس هوبز ـ بوسوى
  - الفكر المقيد : جون لوك ، مونتسكيو ـ جان جاك روسو
  - ادمون بيرك
  - جيرمى بنثام
  - جون ستيوارت ميل
  - الماركســـــية
- دراسة لحالات من النظرية السياسية الاسلامية العربية
- درسة لحالات من الفكر العربى

الفكر السياسى الاغريقى

تميزت الحياة السياسية فى بلاد الاغريق بما سمى دولة المدينة City state الامر الذى اثر بدوره على الفكر السياسى الاغريقى · وتميزت دولة المدينة بصغر عدد السكان وصغر المساحة ، اذ بلغ العدد فى المتوسط حوالى ٣٠٠ الف نسمة ، وانقسم سكانها الى ثلاث طبقات وقاعدة هذا التقسيم طبقة الارقاء وربما كان ثلث سكان اثينا من الارقاء أما الطبقة الثانية فهى طبقة الاجانب المقيمون ، اذ أن الاقامة لم تؤثر فى استمرار صفة الاجنبى حتى ولو امتدت اجيالا متتابعة وكان الاجنبى مثل الرقيق محروما من المساهمة فى الحياة السياسية لدولة المدينة رغم كونه حرا · أما الطبقة الثالثة فهى طبقة المواطنين الذين لهم حق المشاركة فى الحياة السياسية وهذه الصفة كانت ميزة يتوارثها الابناء وتجعله يتمتع بصفة عضوية المدينة مما يجعله يشارك فى النشاط السياسى والشئون العامة وذلك بحضور المواطن اجتماع المدينة وامكانية تولى الوظائف العامة ·

وتمثل النظام السياسى لدولة المدينة فى الجمعية Assembly or Ecclesia وتتكون من المواطنين الذكور ، ويحق لكل مواطن اثينى أن يحضرها بعد بلوغ سن العشرين ، وكانت تجتمع عشر مرات فى السنة على الاقل ، وكانت تعقد اجتماعات غير عادية بناء على دعوة من المجلس Council وتشبه قرارات الجمعية التشريعات الحديثة التى تصدر عن السلطة العامة ·

وهناك مجلس الخمسمائة الذى ينتخب من قبل المنظمات المحلية ، ويقترح القوانين ويستقبل السفراء ويشرف على الموظفين ويعاقب الخارجين بالسجن أو الاعدام ويشرف على الشئون المالية وادارة الاسطول ·

أما المحـــاكم فتكونت من أعضاء قدروا بـ ٥٠١ عضوا أو ما يزيد عـــلى ذلك ولا يقلون عن ٢٠١ عضوا ، وتفصل فى القضايا وتشرف عـــلى الموظفين العموميين وتنفذ القانون ٠

وهكذا كانت الوطنية إسمي شرف للاثينيين ، وتمجد اثينـــا تمجيـــد لاشخاصهم ٠

وقد ذهب بركليس الى أن المواطن الاثينى لا يهمل شئون الدوله بحجـــة انشغاله بشئون أسرته ، والمواطن الذى لا يهتم بالمسائل العامة يعد رجلا منعدم الفائدة ٠

وكان الاثينيون فى عهد بركليس يعتبرون أن شـــغل كل وقت المواطن فى الشئون الخاصة انحرافا عن المثل العليا ، ورغم بلوغ الصناعة الاثينيـــة شأنا عظيما ، فان رجال هذه الصناعة ما كانوا ليرتضـــوا أن يســـتغرق كل وقتهم فتحرمهم الوقت اللازم لمزاولة الاعمال العامة وشئون المدينة ٠

وقد اشتهر الاثينيون فى المجادلات السياسية فى القرن الخامس قبـــل الميلاد ٠ وتميزوا بالمجادلات والمناظرات الكلامية ٠ وكان الاغريقى ميالا للحكم المقارن نظرا للتعدد الذى مكان سائدا فى اشكال النظم السياسية ٠

وظهرت جماعة السفسطائيين sophists وكانوا يعيشون على المقابل المادى الذين يحصلون عليه ن تلاميذهم ٠ وكان ســـــقراط هو الفيلسوف الذى حول تلك الاتجاهات الفكرية المتناثرة الى فلسفة محـــــددة المعالم وذهب الى ان الفضيلة هى المعرفة ، وبالتالى فهى قابلة للتعلم والتعليم

وهناك من يرجح أن الكثير من المبادىء السياســـيه التى نجـــدها فى « جمهورية » افلاطون هى من فكر سقراط الذى تلقاه عنه مباشرة تلميـــذه أفلاطون ، فما ورد فى الجمهورية من طبقة حاكمة تمتاز بالعقل والاتجـــاه الى اتخاذ الدولة على يد الحاكم الفيلسوف ، كل ذلك كان نتاجا لفـــكر سقراط بأن الفضيلة هى المعرفة بما فى ذلك الفضيلة السياسية ٠

افلاطـــــون

ولد أفلاطون حوالى سنة ٤٢٧ ق٠م ، من عائلة أثينيـــة عريقة ، وذهب البعض الى أن انتقاد أفلاطون للديمقراطية يرجع الى ارستقراطية نشأته ، ولكن أفلاطون لم يكن أقل ثقة بالديمقراطية من أرسطو ، الذى لم يكن من ســـلالة النبلاء ، ولكن الأمر الأساسى الذى أثر فى تفكيره هو مصاحبته لسقراط ، فقد أخذ منه فكرة أن الفضيلة هى المعرفة ٠

وقد جاءت أفكاره الأولى عن السياســـة فى « الجمهورية » فى وقت كان معجبا بنظام اسبرطة العسكرى ، وقبل أن تثبت مأساة نظام أسبرطة ٠

وفى عام ٣٦٧ ، ٣٦١ ق٠م ٠ قام أفلاطـــون برحلتين الى سراقوســـة : seracuse لمساعدة صديقه ديون Dion فى تثقيف وتوجيه الملك الصغير ديونيكسيوس D'onysius الذى رأى فى توليه الحكم فرصة لادخال اصلاحات سياسية بعيدة المدى ، فتصور ملكة ذات سلطات غير محددة ، ولديه رغبة فى الافادة ، وسرعان ما خابت آماله ، اذ تبين أن الملك لم يكن راغبا فى الاستماع الى النصح ، أو مستعدا لترويض نفسه على الدراسة أو العمل ، مما أثر على أفكار أفلاطون السياسية ، كما سيتبين فيما بعد ٠

وكان كتاب « الجمهورية » نتـــاجا لعهد شباب أفلاطـــون ٠ أما كتاب « القوانين » فهو نتاج شيخوخته ٠ ويمكن أن نجد فاصـــلا زمنيا يجاوز ثلاثين عاما بين كتـــاب « الجمهورية » وكتاب « القـــوانين » ٠ والكتاب الأول يعكس حماسة الشباب ، أما الآخر فيكس خيبة الأمل ٠٠ أما كتابه السياسى فقـــد كتب فى فترة بين الأثنين ، وان كانت أقرب تاريخيا الى « القوانين » منها الى « الجمهورية » ٠٠

وعرض أفلاطون فى « الجمهورية » دراســـة للرجل الفاضل ، والحيـــاة الفاضلة ٠٠ وكانت تعنى فى نظره العيش فى دولة فاضلة ، فالرجل الفاضـــل

يجب أن يكون مواطنا فاضلا ، والنظرية السياسية فى الجمهورية تأثرت بدرجة كبيرة بالحياة السياسية فى دولة المدينة · فالفكرة الأساسية فى الجمهورية ، هى أن الفضيلة هى المعرفة ، وبالتالى فالرجل الذى تتوافر لديه المعرفة ينبغى أن يستحوذ على سلطة نافذة فى الحكومة ، وأن مؤهله الوحيد للوصول الى السلطة هو المعرفة · والتخصص هو أساس المجتمع ، ويتوقف على الاستعداد الطبيعى والتدريب ، والأول موهبة ، والثانى مسألة خبرة وتعليم · والدولة تعمل على اكتشاف الموهبة وتنميتها بأحسن وسائل التعليم · وبالتالى لا أمل فى قيام الدولة الفاضلة ما لم توضع السلطة فى أيدى من يعلمون ·

وهاجم أفلاطون جهل رجال السياسة وعدم كفايتهم ، فالصناع عليهم أن يعرفوا مهنتهم ، أما السياسيون فلا يعرفون شيئا على الاطلاق ·

وكان الانقسام سببا فى عدم الاستقرار فى نظام دولة المدينة ، وقد أرجع أفلاطون ذلك الى تضارب المصالح الاقتصادية بين الملاك والمعدمين ، وقال أفلاطون : توجد مدينتان فى مدينة واحدة ، الأولى للأغنياء ، والثانية للفقراء ، وهما فى صراع دائم ، وعلاج ذلك عنده هو الغاء الملكية الفردية ، أو على الأقل ازالة الفروق الشاسعة بين الغنى والفقير · وأن يكون تعليم المواطنين موجها نحو تقديم الصالح العام على أى اعتبار آخر ·

وهناك ثلاث وظائف ضرورية للدولة ، وهى : اشباع الحاجات الطبيعية ، وحماية الدولة ، وحكمها ، ويقتضى التخصص ظهور ثلاث طبقات ، وهى العمال الذين ينتجون ، والحراس الذين يمكن تقسيمهم الى جنود وحكام ، أى ان هناك أولئك الذين أهلتهم الطبيعة للعمل لا للحكم ، وأولئك الذين يصلحون للحكم ، بشرط أن يكونوا تحت توجيه غيرهم ، وأولئك الذين يصلحون لأسمى أعباء الحكم ·

والعدالة عند أفلاطون تعنى أن يعمل كل فرد بحسب حالته الكائنة بالفعل فى ضوء مؤهلاته ·

وتتمثل شيوعية أفلاطون فى الغاء الأسرة ، وتحريم الملكية الخاصة على الحكام ، سواء أكانت منازل أو أرضا أو مالا ، على أن يعيشوا فى معسكرات ، ويتناولون طعامهم على مائدة مشتركة ، بالاضافة الى الغاء الزواج الفـــردى الدائم ، والاستعاضـــة عنه بالانسان الموجه وفقـــا لارادة الحكام لانتـــاج أصلح سلالة ممكنة ٠

وتنطبق الشيوعية فى الجمهورية على فئة الحراس وحدها ، أى الحـكام والجنـــود ٠

والتعليم عند أفلاطون هو الوسيلة الايجابية التى يستطيع بها الحاكم تكييف الطبيعة البشرية على نحو يكفل ايجاد دولة متجانسة ، والدولة هى أولا وقبل كل شىء منظمة تعليمية ، فاذا كانت الفضيلة هى المعرفة ، فبالتالى من الاهمية تعليمها ٠ والدولة لا تستطيع أن تترك شئون التعليم للحاجة الخاصة ، وأن يكون مصدرا للتجارة ، بل يتعين عليها أن توفر بنفسها الوسائل اللازمة لذلك، وبالتالى فهو يعمل على تحقيق نظام تعليم اجبارى خاضع لرقابة الدولة ٠

وينقسم التعليم عند أفلاطون الى :ـ

١ ـ **التعليم الأولى** : ويشمل تدريب الأشخاص حتى سن العشرين ، وينتهى عند بداية الخدمة العسكرية ٠

٢ ـ **للتعليم الأعلى** : الذى يقتصر على فئة مختارة من كلا الجنسين ، ويمتـد من سن العشرين الى سن الخامسة والثلاثين ٠

وللنساء أهلية التعيين فى الوظائف كالرجال على حد سواء ٠

أى أن جـــوهر جمهورية أفلاطون هو الحكم المطلق المستنير ، والحكومة المستنيرة بالعقل لا يمكن أن تكون الا حكومة القلة ٠

وقد أغفلت الجمهورية دور القانون ، وأثر الرأى العام ، أى ان الجمهورية كانت انكارا للايمان بدولة المدينة السياسية ٠

وهناك تباين بين نظريات أفلاطون فى الجمهورية ، وما نجده فى السياسة والقوانين ، وان كانت تصحب بصورة واضحة قراءة كتاب « القوانين » ، فالمضمون غير متراجع ، ولذلك كان اقبال القراء على كتاب « القوانين » ضئيلا ·

واذا كانت الجمهورية تركز على الحاكم الفيلسوف ، مما أدى الى استبعاد القانون نهائيا ، فان القوانين عملت على استعادة مكانة القانون الذى يخضع له الحاكم والمحكوم على السواء ، وقد أرجع البعض ذلك الى خيبة أمل أفلاطون عندما حاول الاشتراك فى ادارة شئون سراقوسة ·

ومن المقطوع به أن أفلاطون لم يسلم بشكل نهائي بأن نظريته فى الجمهورية خاطئة ، فقد قال بأن هدفه من القوانين هو أن يصف الدولة التالية فى المرتبة للدولة المثالية ·

وفى « السياسى » بين أفلاطون أن السياسى فنان أكبر مؤهلاته المعرفة ، وشبهه بالراعى الذى يسوس قطيعة من البشر ويدير أمره · أو هو رب الأسرة الذى يدير شئونها لخير أفرادها جميعا ·

ففى الجمهورية ، بعد أن وضع دولته المثالية فى القمة ، نجده يرى أن التيموقراطية Timocracy « حكم الثورة » ، أو الدولة العسكرية ، هى مظهر انحلال الدولة المثالية ، وحكومة الاوليجاركية oligarchy أو حكومة الأثرياء ، وتترتب على انحلال التيموقراطية ، وتنشأ الديمقراطية نتيجة لفساد حكم الأقلية · وتظهر الحكومة الاستبدادية عند فساد الحكومة الديمقراطية ·

أما فى السياسى فهناك محاولة أكثر احكاما ، فالدولة المثالية أو الحكم الفردى البحت شىء الهى ، وهذه أيضا هى الدولة فى الجمهورية ، وبهذا توصل أفلاطون الى التقسيم السداسى المتضمن ثلاثة أنواع تدين للقانون وثلاثة على عكس ذلك ·

حكم الفرد : مصدر للحكومة الملكية ، وللحكومة الاستبدادية ٠

حكم الأقلية : مصدر للحكومة الارستقراطية ، وللحكومة الاوليجاركية ٠

وقد بين أفلاطون فى كتاب القوانين « الدولة المختلطة » التى تجمع بين الحكمة فى النظام الملكى ، والحرية فى النظام الديمقراطي ٠

● ● ●

أرسطـــــو

لم يكن أرســـطو من أهل أثينـــا ، وول دعام ٣٨٤ ق٠م ، وهو من أهل ستاجيرا فى ترافيا ، وكان والده طبيبا ، اهتم بالبحوث البيلوجية ، وقد يكون ذلك سبب اهتمـــامه بالبحوث البيولوجية ، والحق والد أرســـطو بالبلاط المقدونى ، والتحق أرسطو بمدرسة أفلاطون ، حوالى عشرين عاما ، وفى عام ٣٤٣ ق٠م ، اختير معلما للأمير اسكندر المقدونى ٠

ومعظم مؤلفات أرسطو لم تكن مسكملة ومعدة للنشر ، بل كان يستعملها فى التدريس ٠

فالموضوعات التى ناقشها أرسطو فى الدولة المثالية تكاد تكون جميعهـــا واردة فى القوانين لافلاطون ٠

ومثل أرسطو الأعلى هو الحكم الدستورى ، لا الاستبدادى ، حتى ولو كان ذلك الاستبداد هو الاستبداد المستنير الذى يصدر عن الملك الفيلسوف ٠ ولهذا قبل أرسطو ما جاء فى كتاب القوانين فى هذا الصدد ٠ وسيادة القانون تعـد دليلا من أدلة الدولة الصالحة ، والقانون هو العقل مجرد من الهوى ٠

والحكم الدستورى يستهدف الصالح العام ، ولذلك يختلف عن الحـــكم الطائفى ، أو الحكم الاستبدادى اللذان يستهدفان صالح طبقة واحدة ، أو صالح فرد واحد ، وهو حكم قانونى ، والحكومة الدستورية حكومة رعيـة راضية ، وبذلك تتميز عن الحكومة الاستبدادية التى تستند الى القوة ٠

والدولة الفاضلة عمليا عند أرسطو هى الدولة السياسية The polity أو الحكومة الدستورية ، وتجمع بين العنـــاصر الصالحـــة فى الديمقراطية والعناصر الصالحة فى الاوليجاركية معا ٠ وأساسها الاجتماعى وجود طبقـــة متوسطة قوية تتألف من أولئك الذين ليسوا بالاغنياء حد الغنى ولا الفقـــراء غاية الفقـــر ، اذ أن أفرادها ليسوا من الفقر بحيث تتكسر أجنحتهم ، ولا من

الغنم بحيث ينشبون أظافرهم ، وهـــذا يكفل للدولة الارتكاز عـــلى أساس شـــعبى ٠

● ● ●

وفى أعقاب ذلك ظهرت عدة مدارس منها مدرسوة الأبيقوريون ، وذهبت الى أن الحياة الفاضلة تقوم على التمتع باللذة ، والسعادة تقوم على اجتنـاب كل ألم وهم وقلق ، وكانت لذة الصداقة الروحيـــة التى سعى ابيقـــور الى تحقيقها بين تلاميذه ، هى تلك التى يتكون منها الجانب الايجابى من مذهبـــه فى السعادة ٠ وتطلب ذلك الانعزال عن مشاغل الحياة العامة ٠

والدولة تنشأ لتوفير الطمأنينة ، ولا سيما من عدوان الغير ٠

وكانت الابيقورية فى الجملة فلسفة هـــروب ، وكانت بالنسبة للأفراد مصدر سلام وعزاء ، ولكنها فى زمانها لم تفعل شيئا بالنسبة الى تطور الآراء السياســـية ٠

● ● ●

وفاق الكلبيون كل مدرسة أخرى فى الاعتراض على دولة المدينة ، وتقسيم الطبقات ، ولذلك هجروا مباهج الحياة ، ودعوا الى ازالة الفوارق الاجتماعية ، ويبدو أنهم انحدروا من صفوف الآجانب المنفيين ٠ وكان الكلبيون من المعلمين المتجولين ، والفلاسفة الشعبيين ، الذين اتخذوا حياة الفقر مذهبـــا ، وكانت معظم تعليماتهم موجهة الى الفقراء ، وكانوا يدعونهم الى ازدراء كل الآمـــور المتعارف عليها ٠

● ● ●

الفكر السياسى الرومانى

تعد مساهمة العصر الرومانى فى تطور الفكر السياسى ، أضعف من مساهمة العصور الآخرى ، وترجع عظمة روما الى دورها فى الواقع السياسى فى المقام الأول ، أما ما قدمته من فكر وفلسفة سياسية ، فيأتى فى المقام الثانى .

وأخذت روما بالنظام الملكى الارستقراطى ، وتطور هذا النظام فأتاح دورا للشعب فى الحكم ، وفى حوالى عام ٥٠٠٠ ق.م ، قامت الجمهورية ، وبعد أن استقرت الأوضاع الداخلية اتجهت روما فى التوسع الخارجى بضم المدن الايطالية المجاورة ، ثم كانت الامبراطورية الرومانية ، وقسمت الامبراطورية الى امارات ، وعلى رأس كل امارة حاكما رومانيا له سلطات واسعة ، وتطورت الأمور ، فأخذت الجمهورية بنظام الحكم الديمقراطي ، وان كانت قد تحولت بعد ذلك الى دكتاتورية عسكرية ، واستحوذ مجلس الشيوخ الخاضع للامبراطور على أعمال التشريع فى الامبراطورية ، وامتدت صفة المواطن فى أواخر القرن الثانى الميلادى الى المقيمين فى ولايات الامبراطورية .

واختفت النظرية القائلة أن الامبراطور يستمد سلطانه من الشعب الرومانى ، وظهرت نظرية جديدة تقول : ان سلطات الامبراطور لها أصل الهى مقدس ، وتلى ذلك الاعتراف الرسمى بالمسيحية كديانة رسمية للامبراطورية .

وقام الرومان بتطوير النظم القانونية للعالم القديم ، واقتبسوا من الفلسفة الاغريقية ، واذا لم تكفى اتجهوا الى الجانب التطبيقى فى السياسة والادارة ، أى ان روما أرست قواعد نظام قانونى يعتبر الدعامة الأساسية للنظم القانونية فى عالم اليوم .

ومع اتساع الامبراطورية ، تعامل الرومان مع شعوب أخرى غيرهم ، وحيث

كان لا يجوز تطبيق القانون الرومانى على غير المواطنين الرومان ، كان هناك « قانون الشعوب » الذى يحكم علاقة المواطنين الرومان مع الذين لا يخضعون لقانون روما وأدى ذلك الى ظهور القانون الطبيعى ، فنتيجة معرفة الرومان بالنظم القانونية غير الرومانية ، واستيعابهم لفلسفة الاغريق ، رأوا أن هناك مبادىء قانونية معينة ، نبتت بالطبيعة فى عقول كل الأفراد ، وبالتالى اعتبر القانون الطبيعى قانونا عالميا يعلو على غيره من القوانين . والقانون الطبيعى يعتمد على العقل والمنطق ويطبق عالميا .

وفصل الفكر الرومانى الفرد عن الدولة ، فالدوله تطور طبيعى لحياة الافراد فى المجتمع ، ووجدت الدولة للمحافظة على حقوق الأفراد .

ومن المفكرين الرومان شيشيرون ١٠٦ - ٤١ ق.م ، وله كتب شائعة مثل « الجمهورية » و « القوانين » ، ويذهب الى أن الدولة نشأت نشأة طبيعيـــة نتيجة لميل الانسان للاجتماع بغيره من البشر .

وذهب الى أن أفضل شكل للحكومة هو نظام الحكم الملكى ، ويليه الحكم الارستقراطى ، أما الديمقراطية فيراها أسوأ نظام للحكم .

ورأى أن هناك قانون طبيعى عام ، اذ ليس للكون خالق واحد الا الاله ، وللاله قانون واحد يسرى على جميع الأفراد ، وكل تشريع يخالفـه لا يستحق اسم قانون .

أما سنيكا ، فجاء فكره فى عهد نيرون ، الذى كان حاكما فاسدا ، وكذلك دافع ســـنيكا عن نظام الحكم المطلق ، فأغلبية الشعب يتســـون بالفساد ، وبالتالى فحكمها أشد ظلما من حكم الدكتاتور .

وذهب سينيكا الى أنه كان هناك عصر ذهبى ،قبل عصر المدينة والدولة ، فكانت الحياة خالية من الطمع والجشع ، وكان الأفراد سعداء ، وعندما ظهرت رغبة الأفراد للتملك ، بدأ الجشع ، وهنـــا ظهرت نفعية الحكام واستبدادهم.

●●●

الفكر السياسى المسيحى

من التطورات التى شهدتها الامبراطورية الرومانية ظهور المسيحية ، اذ ظهرت هذه الديانة فى جزء من الامبراطورية ٠

واتجهت المسيحية نحو الغرب ، ففى الشرق وجدت من الصعوبات ما لم تتمكن من التغلب عليها ، وأخذت المسيحية من روما مركزا لها ، ولم تهدم المسيحية الحضارة الرومانية ٠

وجذبت المسيحية اليها الطبقات الدنيا من الشعب الرومانى ، وفى البداية عانى المسيحيون من اضطهاد الرومان الذين لم يعترفوا بالدين الجديد ٠

وعندما اعترف الامبراطور قسطنطين بالمسيحية كدين رسمى للامبراطورية فى القرن الرابع الميلادى ، فى أعقاب انتشارها بين الشعب الرومانى ، ازدهرت هذه الديانة ٠ وقد دعا الحواريون الى ضرورة طاعة الحكومة ، فهى أداة تنفيذ ارادة الله على الأرض ، واذا تدخلت الدولة فى شئون الكنيسة ، هنا يحق عدم طاعة الحكومة ٠

وتبنى رواد الكنيسة فكرة القانون الطبيعى ، وبينما أكد المسيحيون الاوائل على عدم التفرقة بين العبيد والاحرار فى نظر الاله ، اعتبروا الرق استعبادا للجسد وليس استعبادا للروح ٠

وبعد اعتراف الامبراطورية بالمسيحية ، تولى أسقف روما وظيفة مستشار الامبراطورية فى الشئون الدينية ، وفى البداية قام رجال الكنيسة وسكان روما باختيار أسقف المدينة الذى يتولى وظيفة البابوية ، وكان اختياره يرتبط بالمشاحنات والمصادمات الدموية ، وتصارعت العائلات الكبيرة على هذا المنصب مما أدى الى وصول شخصيات مشبوهة وتتمتع بسيرة غير حسنة الى هذا المنصب ، ومن هنا كانت محاولات الاصلاح التى انتهت فى القرن الحادى عشر بأن أصبح الكرادلة وحدهم هم الذين يشتركون فى اختيار البابا ٠

ومنذ القرن التاسع ، زاد الدور الدنيوى للبابا ، وكان يحق له فـــرض جزاءات روحية تصل الى حد الحرمان من رحمة الكنيسة ، وهذا يعنى اهدار دم من صدرت ضده هذه العقوبة ، ولم يستثن الملوك والاباطرة من الخضـــوع لهذه السلطة ، وعندما تدهورت قوة الامبراطور فى عصر الاقطاع ، مما أدى الى زيادة دور الكنيسة وقوة البابا وكانت الكنيسة تتمتع بثراء كبير ، اذ امتلكت مساحات واسعة من الاراضى ٠

ووصلت البابوية الى اقصى قوتها فى القرن الثالث عشر ، وفى القـــرن الرابع عشر زادت قوة الملوك والاباطرة ، وضعف دور النبلاء والاشراف الذين اعتمد عليهم البابا فى ممارسة سلطته الزمنية ٠

وبينما ساد التفاهم بين السلطتين : الزمنية والدينية فى بداية العصـــور الوسطى ، مالبث الأمر أن تحول الى تنافس وتنازع ٠ ولذلك انقســـم الفكر السياسى فى هذه الفترة الى بعدين : الأول يدافع عن السلطة الدينية ، والثانى يدافع عن السلطة الزمنية ٠ ومن مبادىء الفكر المسيحى المساواة ، وهنا يقول بولس الرسول : « **ليس هناك تفرقة بين اليهود والاغريق ، أو حر وعبـــد ، أو ذكر وانثى ، فكلهم سواء فى يسوع المسيح** » ٠

ومن واجبات المسيحى الطاعة ، اذ قال السيد المســيح : « **اعط ما لقيصر** لقيصر وما لله لله » ٠ وبينما مثلت الكنيسة السلطة الدينية ، مثل الامبراطور السلطة الزمنية ٠

ودافع القديس أندروز عن استقلال الكنيسة الذاتى فى الأمور الدينية ، وهذا لا يتعارض مع وظائف الامبراطور الدنيوية ٠

ودعا القديس « أوجستين ٣٥٤ ــ ٤٣٠ الى قيام كومنولث مسيحى ، وان الانسان يتكون من روح وجسد ، والروح تتعلق بالسماء ، والجســـد يتعلق بالأرض ، وبالتالى فالأمور الدنيوية مصدرها الجسد ، والامور الدينية مصدرها

الروح ، وفى النهاية ستنتصر مدينة الله .

وتميزت العصور الوسطى بالنظـــام الاقطاعى الذى جاء نتيجة لانهيـــار الامبراطورية الرومانية ، وأصبحت الضيعة أداة لتنظيم العلاقات . ومن مفكرى هذا العصر القديس توماس الاكوينى ، الذى رأى أن المجتمع يحقق الخـدمات المتبادلة ، والحاكم ينظم تعادل الخدمات ، ويستمد الحاكم سلطته من الله ، والحاكم مسئول عن جعل القانون الوضعى مسايرا للقانون الطبيعى ، ومقاومة المحكومين للاستبداد ليس حقا فحسب بل واجب أيضا .

ودعا دانتى الى توحيد السلطة ووضعها فى يد الامبراطور ، وقال : « إن سياسة البابا سببت انقسامات داخلية ، والسلطة الزمنية ضرورة لرفاهيـــة الشـــعب .

أما مارسيليو دى بادو فدعا الى الحد من سلطات البابا ، والقضاء عـــلى النظام البابوى ، ووضع الكنيسة تحت سلطة الدولة .

● ● ●

الفكر السياسى الاســـلامى

يتميز الدين الاسلامى بالشمول ، اذ أنه دين ودنيـــا ، أى ينظم مختلف العلاقات البشرية ، كما أنه يقوم على المساواة « **انما المؤمنون أخوة** » . وقال الرسول (صلعم) « ليس لعربى فضل على أعجمى الا بالتقوى » . بالاضافة الى تخليص المرأة من قيود الجاهلية ، وتحرير العبيد .

ويقوم الاسلام على عدم الاكراه فى الدين : « **لكم دينكم ولى دين** » ، ومن هنا كان الاقتناع عاملا أساسيا فى نشر الاسلام .

والشورى من الدعامات الأساسية فى الاسلام : « **وشاورهم فى الأمر** » . « **وأمرهم شورى بينهم** » ، بالاضافة الى العدل : « **واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل** » .

والاسلام يدعو الى مقاومة الحاكم المستبد ، وفى هذا الصدد قال الخليفة أبو بكر : « انى وليت عليكم ولست بخيركم ، فان أحسنت أعينـــونى ، وان أسأت فقومونى » .

كما يدعو الى مقاومة الظلم . قال الرسول (صلعم) : « ان الناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه ، أوشكوا أن يصيبهم الله بعقاب من عنده » .

والاسلام دين عالمى ، اذ أنه أتى للبشر كافة فى كل مكان ، كما يدعو الى معاملة غير المسلمين بالحسنى .

والتقوى سمة أساسية من سمات الاسلام : « **ان أكرمكم عند الله أتقاكم** » « **فالله لا ينظر الى صوركم وأشكالكم وانما ينظر الى قلوبكم** » أى التقوى .

وقد جاء الاسلام خاتم رسالات السماء ، بعد سبع قرون من قيـــام الدين المسيحى ، مصداقا للتوراة وتأكيدا للانجيل .

وهدف الاســـلام هو ارساء دعائم الدولة وفقا لما جاء فى القرآن الكريم

والسنة ، ولم يعرف الاسلام الفصل بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية ، بل عرف سلطتين متلازمتين ، ترتبط كل منهما بالأخرى .

والحكم في الفكر الاسلامي يقوم على ما أنزل الله في القرآن الكريم ، ثم السنة ، كما يقوم على الشورى ، والرضى ، أي موافقة المحكومين على ولاية الحاكم ، قال الله تعالى : « **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** » **قال تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم »** .

ومن المفكرين الاسلاميين الفارابي ، الذي تأثر بفلسفة أفلاطون وأرسطو السياسية ، ومن مؤلفاته : « آراء أهل المدينة الفاضلة » ، و « السياسات المدنية » . ويرى أن الحكمة أهم صفات الحاكم .

وابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦) م ، وله كتاب : « العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاشرهم من ذوي السلطان الأكبر » والجزء الأول منه يعرف بمقدمة ابن خلدون ، ويوضح فيها فلسفته في التاريخ والسياسة والاقتصاد .

والدولة عند ابن خلدون تمر بعدة مراحل ، اذ تنشأ على أنقاض دولة سابقة عليها ، ثم ينفرد الحاكم بالحكم بعد أن يتخلص من زملائه ، ثم تسود الراحة والطمأنينة ، ثم تتحول الى فناعة ومسالمة وفي النهاية تنقرض الدولة وتزول. والاجتماع البشري ضروري للانسان ، والحاكم **ينظم المجتمع الذي يسميه** بالدولة . واذا كانت الحكومة الطبيعية يحكمها حاكم مستبد ، فان الحكومة الدينية هي خير حكومة ، وتستند الى شريعة الله .

أما عبد الرحمن الكواكبي ١٨٤٨ - ١٩٠٢ م ، فقد دعا في كتابه : « طبائع الاستبداد » الى اتحاد الشعوب الاسلامية ، ويرى أن الاستبداد مطلق ولا يقف عند حد ، وهو دائما على حساب العلم ، لأن الاستبداد والعلم ضدان ، ورجال الاستبداد يطاردون رجال العلم وينكلون بهم ، فالسعيد منهم من يتمكن من

مهاجرة دياره ، ولذلك فان الأنبياء وأكثر العلماء والمفكرين تقلبوا فى البـــلاد وماتوا غرباء ٠

وفى كتابه « أم القرى » يدعو الى ربط البلاد الاسلامية بعضها ببعض ، وتخيل مؤتمرا عقد فى مكة فى موسم الحج ، ويمثل أعضؤه مختلف الدول الاسلامية ، ويرى أن الجهل هو مصدر الخلل ، ودعا الى مقاومة البدع ، وتأسيس جمعيـة ثقافية ويرى أن من أسباب ضعف الأمة الاسلامية تحـــول الديمقراطيـة الى دكتاتورية وترك الدين ٠

وفى « طبائع الاستبداد » يرى أنه لا خلاص من الاستبداد الا عن طـريق يقظة عقلية عن طريق الدين ، وهذه اليقظة تأخذ مدة من الزمن ، ولذلك يجب ربط جهود الابناء بجهد الآباء عن طريق الجمعيات والمؤسسات ٠٠ فيد اللـــه مع الجمـــاعة ٠٠

أما جمال الدين الافغانى ، فدعا الى الاجتهاد والتجديد ليسترد الاسلام مكانته ، وذلك فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ٠

وتدور دعوته حول توحيد صفوف المسلمين وجمع كلمتهم ، للوصـــول الى نموذج يأخذ حضارة الغرب ومدنيته وعلمه بما يتلائم مـــع الاسلام ، وفى نفس الوقت دعا الى محاربة الاستعمار الغربى ، واطـــلاق حريات الشعوب الاسلامية ٠

ومن تلاميذه محمد اقبال بالهند ومحمد عبده بمصر ودعا الامام محمـد عبده الى تحرير الفكر من التقليد ، واصلاح اللغة العربية ، ودعا الى تقـوية الروح الجمـــاعية فى الامة ، ويتم ذلك من خلال التربية الحقـة التى تراعى التعاليم الاسلامية ، وانتقد المجتمع المصرى ويعتبر الزواج تنظيمـــا لحيـــاة الزوجين ، ويعتبر تعدد الزوجات ذات اثار اجتمـــاعية ضـــارة ولذلك فمن

الاهمية الاقتصار على زوجة واحدة الا فى الحالات التى يتحقق فيها شرط الشرع فى الجمع بين أكثر من زوجة ٠

وحارب البدع والرشوة وعدم المبالاة بالمصلحة العامة ٠

وهكذا تفاعل الفكر السياسى الاسلامى مع واقع المسلمين ومشاكلهم ، وواقع المسلمين اليوم يبين انهم ابتعدوا عنه ، وهذا يساهم فى تفسير ازماتهم ٠

الفكر السياسى الحديث

تدهور النظام الاقطاعى ، وظهرت الدولة الوطنية أو ما يسمى بالدولة القومية ، وصاحب ذلك نمو التجارة الدولية واتساع المدن ، ومن هنا زادت قوة الملوك ، وضعف دور النبلاء ورجال الكنيسة ، ونمت الجيوش ، وفرضت الدولة الضرائب وكان هذا نواة لتكوين الدولة الحارسة التى تتولى حماية الشعب والدفاع عنه وتحقيق الخدمات الضرورية كما قامت « الثورة البروتستانتية » احتجاجا على بذخ رجال الكنيسة ، وفرضهم الضرائب ، وابتداع وسائل جديدة للحصول على المال مثل بيع صكوك الغفران ، ومن هنا كانت هذه الثورة احتجاجا على رجال الدين .

ومن هنا وجد عدد من المفكرين يشتركون فى الولاء للملكية المطلقة ، وهم الايطالى ميكيافيللى والفرنسى بودان والانجليزى هوبز ورجل الدين بوسوى . وكانت أوربا المسيحية الاقطاعية قد عرفت فى العصر الوسيط أفكارا تقاوم الحكم المطلق ، فراح هؤلاء المفكرون يواجهون هذه الافكار ، وقد اختلفت طرقهم فى الدفاع عن الحكم المطلق ، ففصل ميكيافيللى بين الدولة وبين قواعد الاخلاق ، معلنا استقلال السياسة عن قواعد الاخلاق ، وابتدع بودان فكرة السيادة الحديثة ، واستند هوبز الى الطبيعة الانسانية والعقد السياسى .

ميكيافيللى ١٤٦٩ - ١٥٢٧

يرتبط ميكيافيللى بعصر النهضة ، وبالاوضاع فى ايطاليا • وقد هاجم الكنيسة وحملها مسئولية تجزئة ايطاليا ، وانقسامها الى امارات ، وتعرضها للغزو الخارجى ، ولذلك قال أن الايطاليين يدينون الكنيسة التى عملت على تقسيم الوطن •

وفى عام ١٤٩٨ أى فى التاسعة عشر من عمره عمل سكرتيرا فى حكومة جمهورية فلورنسا ، كما قام باعباء اخرى تتعلق بالتخاطب مع ممثلى فلورنسا فى الخارج ، وكان هذا العمل يرتبط بجرائم زملائه الخسيسة ، ذلك أن حياته لم تكن حياة دبلوماسى كما شاع عنه خطأ ، ولعل هذا الخطأ جاء نتيجة لتكليفه ببعض المهام خارج فلورنسا أو خارج ايطاليا • ومع تغير الحكم فى ايطاليا ، فقد ميكيافيللى وظيفته ، ثم الف كتاب « الامير » الذى قال فيه أن الأمير الجديد يعيش فى جو من المخاطر ومخاوف من الداخل من سلوك رعيته ومخاوف فى الخارج من الدول المجاورة له ، وبالتالى يجب على الامير الا يكون طيبا على الدوام ، وانما ينبغى عليه أن يجيد كيف يكون طيبا وكيف لا يكون كذلك وفقا لما تقتضيه الضرورة •

ومن المرغوب فيه أن يتحلى الأمير بالفضائل ، فيكون كريما محسنا وفيا بالعهد شجاعا قوى الارادة مقداما يهاب جانبه ، غير أن ذلك صعب التحقيق بعيد المنال لا يتفق وحال البشرية ، لذلك يكتفى من الامير ان يعرف كيف يتجنب التصرفات الخسيسة التى تفقده دولته بل أن ثمة رذائل قد تكون لازمة فى سبيل المحافظة على دولته •

والامير الكريم قد يؤدى به كرمه الى الفقر مما يؤدى الى فقد تقدير رعيته ، واذا كان ينبغى عليه أن يكون رحيما فيتحتم ان يعرف كيف يستعمل الرهبة بل وينبغى ان يكون شديدا ، فالرحمة قد تؤدى الى الفوضى ، والقسوة تقيم النظام وتحقق الوحدة ، فالقسوة مباركة لان رحمة الامير الزائدة قد تؤدى الى الفوضى ، ومن هنا فهى فى غير صالح الجماعة •

فالناس يحبون الاميران قضيت حوائجهم ، فحبهم له متغير أما مخافته لا تتغير اذ هى دائمة مخافة العقاب الذى يصبه الامير ٠

وفيما يتعلق بالسياسة الخارجية ، فيرى ميكيافللى أن يجمع الامير فى تصرفاته من اساليب الانسان والحيوان ، فان التجأ الى وسائل الحيوان ، عليه ان يتخذ من بين الحيوانات الثعلب والاسد كمثل يحتذى به فعلى الاميران يكون ثعلبا واسد فى أن واحد ، فاذا لم يكن الامير اسدا ، فانه لا يستطيع أن يرى الشباك التى تنصب له ، واذا لم يكن ثعلبا ، فانه سيعجز عن مغالبة الذئاب ، وبالتالى ينبغى عليه أن يكون ثعلبا واسدا معا ٠

وليست العبرة بالوسائل ، ولكن العبرة بالنتائج ، أى أن الغاية تبرر الواسطة ٠

ويبين كتاب الأمير أن توحيد ايطاليا هو الهدف الأكبر لميكيافيللى ٠

وهكذا تجاهل القواعد الاخلاقية وفصلها عن السياسة أى دعا الى السياسة اللااخلاقية ، والغرض من السياسة هو المحافظة على قوة الدولة وازدياد هذه القوة ولم يقدر لكتاب الامير ان يذيع صيته اثناء حياة ميكيافللى وبعد اربع سنوات من وفاة ميكيافيللى طبع كتاب « الامير » بتصريح من البابا « كليمو الخامس » عام ١٥٣١ ، ثم طبع عدة مرات ٠

وهاجم الجانب الكاثوليكى كتاب الأمير ، وقال أحد الكرادلة عن كتاب الامير ٠

« كتاب انشأته يد الشيطان » ، واذا كان الشيطان يطلق عليه فى انجلترا Old Nick (أى نيقولا العجوز) أفليس ذلك اشارة الى نيقولا ميكيافيللى ؟ وفى ١٥٥٧ وضع البابا بول الرابع هذا الكتاب فى القائمة المحرمة ٠ كما ان البروتستانت صبوا لعناتهم على كتاب الامير ٠

وقد اتخذ الحكم المطلق من كتاب « الامير » انجيلا للحكم لا تبدل كلماته وقد ذهب « فيكتور هيجو » الى أن نابليون الثالث كان لا يقرأ الا كتابا واحدا هو كتاب الاميريل ان موسوليني ربط الفاشية بالميكيافيللية ، وذهب جان جاك روسو في كتابه « العقد الاجتماعي » الى ان كتاب ميكيافللى يعد كتابا للديمقراطيين ، اذ ان هذا الكتاب يكشف عن سياسة الطغاة واساليبهم للناس ليتخذوا لانفسهم الحيطة منها ، واذا كان قد اعطى دروسا للملوك فقد اعطى للشعوب دروسا اعظم ، ومن ثم فكتابه هو كتاب الديمقراطيين .

وقد رأى ميكيافيللى أن نظام الحكم الديمقراطى هو أفضل أنظمة الحكم لكنه لا يصلح الا للشعوب المستنيرة والتى تتقيد بالاخلاق ، اما الشعوب التى لا تلتزم بالاخلاق والدين مثل الشعب الايطالى ، فلا يصلح لها الا النظم الاستبدادى .

● ● ●

جان بودان ١٥٢٩ - ١٥٩٦

يرتبط اسم بودان بالدولة الحديثة ، اذ أنه أول من نادى بسيادة الدولة وقد عاصر الصراع الدينى فى فرنسا بين الكاثوليك والبروتستانت ، مما ادى الى حروب داخلية فى فرنسا ، وكذلك وضع نظريته فى السيادة التى يجب أن تتركز فى يد الملك دون سواه وتحدث عن الانسان العالمى ، وبذلك ساهم فى تأسيس المبدأ الانسانى Humanism ، كما دعا الى التسامح الدينى ٠

وفى ١٥٧٦ اخرج بودان كتابه

الكتب الستة فى الجمهورية Les six livres de la Republique

باللغة الشعبية لا باللغة اللاتينية ، حتى يكون فى متناول عامة الفرنسيين وخاصتهم ، واحتوى الكتاب على ٤٢ فصلا ، تناول فيها الاسرة والسلطة الزوجية والسلطة الابوية والرق والمواطن والاجنبى والمحمى ، وتناول المعاهدات والمحالفات وانواع الدول والمالية والنقود والعقوبات والعدالة وتطور الدول والثورات ووسائل تفاديها ٠

وعنده لا طريق لانقاذ فرنسا الا بالملكية المطلقة وجعل السيادة حجر الزاوية فى كيان الدولة ، وعالج كل شىء فى الدولة استنادا الى « السيادة » فالاسرة ترتبط بسيادة الأب ، والدولة لا تقدر لها سيادة الا بنظام ملكى مطلق والدولة هى حكومة شرعية تنطوى على عدد كبير من الاسر والحكومة الشرعية والسيادة غير ان السيادة هى القلب النابض للدولة ٠

وتقارن الاسرة بالدولة ، لا ظهار السيادة التى ترتبط بالدولة ، فيقول اذا لم يكن الزوج عبدا أو ابنا لاسرة فانه ينبغى أن يتمتع بسلطة مطلقة على زوجته لان الاسرة كالدولة لا ينبغى أن يكون فيها اكثر من حاكم واحد وسيد واحد ، ذلك انه اذا كانت السلطة لاكثر من شخص واحد استتبع ذلك

اصدار اوامر متضـــاربة ... الامر الذى يؤدى الى اضـــطراب حال الاسرة كالقوانين تتفق على وجوب طاعة الزوجة لزوجها ما لم تتعارض او امره مـع القانون الالهى ٠

والاب هو صورة الله ، ينبغى ان يكون للاب سلطة فعلية على الابن تصل الى حد الحياة والموت ٠ أما الحكومة الشرعية فهى ركن اساسى للدولة وتميزها عن عصابة اللصوص أو القراصنة ، ذلك أن العصابة وان كانت جماعة يعيش أفرادها فى وئام ، فليست بالمجتمع أو الدولة ، اذ ينقصها ركن المجتمع الهادىء أى الحكومة الشرعية ٠

والسيادة هى غايته ووسيلته اذ انها السلطة المطلقة الدائمة فى الدولة وهى الخاصة الرئيسية التى تميز الدولة عن غيرها من التجمعات والتنظيمات البشرية الاخرى وتلتقى هذه الافكار فى الملكية المطلقة ، واذا كانت السيادة لامير واحد كانت الدولة ملكيـــة ، واذا كانت فى يد الشعب كانت الدولة ارستقراطية ، ولذلك فضل الملكية التى يراها اكثر النظم مطابقة للطبيعة لان قوانين الطبيعة تهدى الى الملكية ، والكلية ، والسيادة المطلقة لن تجد نظاما أكثر كفاءة من النظام الملكى ، فالسيادة لا تتجزأ وليس لاحـد فى الدولة ان يدعى لنفسه السيادة الا اذا انفراد بها ٠ والملكية عند بودان يخضـــع فيهـا الرعايا لقوانين الملك ويخضع فيها الملك لقوانين الطبيعة ٠

وهكذا ساهم بودان فى التمهيد لفكرة السيادة الحديثة وقد توفى بودان عام ١٥٩٦ بعد أن ترجم كتابه الى اللاتينية ، ثم ترجم الكتاب بعـد ذلك الى لغات عديدة ٠

● ● ●

توماس هـــوبز

١٥٨٨ - ١٦٧٩ م

عاصر هوبز الصراع الدينى فى انجلترا بين البروتستانت والكاثوليك ، بالاضافة الى الصراع بين البرلمـــان والملك ، حتى أنه فى ١٦٤٩ م ٠ أسـقط البرلمان الملك ، حيث انتشر جيش كرومويل cromwell البرلمانى وأعدم الملك شارل الأول « ستيوارت » ، وأصبحت انجلترا جمهورية ، وفى هـــذا الاطار ظهر عام ١٦٥١ م ٠ لتوماس هوبز كتاب « الوحش » leviathan وهو لفظ لوحش خيالى ، ورد فى كتب الدين ، الذى يملك قوة خارقة ٠

فالدولة عنده وحش ، وصل الى درجة كبيرة من القوة لا تدانيها قـــوة انسان ، رغم أنها من خلقه ، وهى شىء خيالى من ابتداع الانسان ٠

وقد ساهم فى ذلك نشأة هوبز ، اذ ولد عام ١٥٨٨ قبل أن تستكمل أمه شـهور الحمل التسعة ، وكانت والدته تمتـــاز بالقلق ، وكانت الظـــروف السياسية فى انجلترا غير مهيأة ، ولذلك يقول عن نفسه : « أنا ٠٠ والخوف توأمان » ٠

ونظرا لهذه الأوضاع ، غادر انجلترا الى باريس ، وقضى فى الأخـــيرة ١١ عاما ، منها عامين فى تدريس الرياضيات للأمير الفرنسى شارل الثانى ، وفى هذه الفترة ألف كتابه « المواطن » ٠

ويذهب فى كتابه « الوحش » الى أن الانسان يتميز عن غيره من الحيوانات بالعقل وبالدين ، الذى يعد وليد الرغبة فى التعرف على اللـــه ٠٠ والانسان لا يعيش فى معزل عن الآخرين ، ولذلك فكل انسان منافس لأخيه الانسان ، والانسان ذئب لأخيه الانسان ، وهناك الخوف الدائم من خطر الموت الداهم ، ومن هنا ظهرت أهمية وجود انسان عام يعلو الأفراد ، وهو الدولة ٠٠

وأصل الدولة عند هوبز يتمثل فى أن عقدا أبرم بين الأفراد نقل الحـق

الطبيعى المطلق لكل فرد الى شخص ليس طرفا فى العقد ، وارادة الأخير تحل محل ارادة الجميع ، والأخير لم يكن طرفا فى العقد الذى ارتبط به الجميع لصالحه ، وبالتالى لا يوجد التزام يلزمه من جراء هذا العقد ، وهذا هو أصل الدولة عند هوبز ، أى ذلك الوحش ٠

ولم ير هوبز أصلح من النظام الملكى ، وثراء الملك وسلطاته وشرفه لا تأتى الا من ثراء رعاياه وقوتهم وسمعتهم ، ولا يحق للملك أن يكون ثريا قويا فخورا اذا كان رعاياه ضعافا معدمين ، وفى الديمقراطية لا يتحقق ذلك فان حاكما انتهازيا وصوليا مفسدا يستطيع فى ظل الديمقراطية أن يصل عن طريق الغدر والخيانة ، أو عن طريق حرب أهلية الى أن يحقق لنفسه ما لم يتحقق له مع الرخاء العام للشعب وسلامه ٠

وهكذا تنازل الأفراد الطبيعيون بمحض ارادتهم عن حقوقهم وحرياتهم ٠ نزولا مطلقا نهائيا لا رجعة فيه ، الى صاحب السيادة ، وبذلك فقد جردوا أنفسهم من حرياتهم ولا يحق لهم الطعن أو الاعتراض على شرعية أوامر صاحب السيادة ، لأنه أصبح ممثلا لهم بل أحلوا ارادته محل ارادتهم ، فأى عمل من أعمال صاحب السيادة يعتبر من أعمالهم هم ، والتظلم منه تظلم من أنفسهم ٠

والسيادة عند هوبز لا تتجزأ ، ومظهرها هو سن القوانين والغائها ، وان كان صاحب السيادة يخضع للقانون الطبيعى ٠

وصاحب السيادة الذى يصدر القوانين ويلغيها لا يلتزم بها ، فالفرد لا يلزم نفسه بنفسه ٠

وواجبات صاحب السيادة تتمثل فى الأمن والسلام العام ٠ كما يعمل على تحقيق المساواة لرعاياه أمام القانون ٠٠ وازاء الأعباء العامة ويعمل على رخائهم وأن لا تتغلب الأنانية فيحتكر البعض الثروات ويحرم الآخرون ، ومن أهم واجبات صاحب السيادة هو أن يعمل على أن يكون دائما قويا ناجحا ٠٠

وخير حافظ للدولة هى السلطة ، فالانسان الذى كان ذئبا فى مواجهة الانسان الآخر فى حالة الطبيعة أملك عليه مصلحته أن يتخذ من انسان آخر الها فى ظل الجماعة السياسية . وصاحب السيادة الجديد لديه سلطات مطلقة لا يجوز النزول عنها ، اذ أنها وسيلة لتحقيق سلام الجماعة وأمنها .

والدولة عند هوبز مسيحية ، وبالتالى فقانونها هو الكتاب المقدس . ووفقا لنظريته لا يصبح صاحب السيادة بمقتضى العقد ارادة الدولة فحسب ، بل ارادة الكنيسة أيضا .

أى ان هوبز أيد الحكم المطلق ، بل أخضع رجال الكنيسة لسلطان صاحب السيادة .

وقد توفى هوبز عن احدى وتسعين عاما ، بعد أن بين ان الدولة تؤمن الانسان من الخوف ، وهى مطلقة مستبدة لتحقق له السلام والأمن .

● ● ●

بوســـــوى

١٦٧٩ - ١٧٠٩ م

عرفت فرنســـا فعلا دولة هـــوبز المطلقة ، فلا ارادة الا ارادة صاحب السيادة ، ولم يكن ذلك أشـــد من دولة لويس الرابع عشر عنـــدما قال : « الدولة أنا » L'état, C'est moi

ويستمد بوسوى فى كتاباته فى الظاهر من الكتب المقدسة ، وان كان قد ثبت أنه تأثر بالسابقين مثل أرسطو وهوبز ، وان كان قد ربط أفكاره بالحق الالهى ، أى أنه يتحدث عن الأمير وفق الكنيسة لا حسب ميتيافيللى ·

وفيم يتعلق بالسلطة ، نقل بوسوى عن أرسطو أن الانسان خلق للحياة فى مجتمع · ونقل عن هوبز أن الانسان ذئب لأخيه الانسان ، ويعتمد بوســـوى هنا على الروايات المقدسة عن أصل البشر وخطيئة آدم وهبوطه الى الأرض ، وقتل قابيل لأخيه هابيل ، ومن هنا ظهرت الحاجة الى حكومة ذات ســـلطة يخضع لها الجميع · وعندما تقوم السلطة بتنـــازل كل فرد عن ارادته ، فانه بذلك ينقلها الى الأمير ويربطها بارادته ، وهنا يصبح الجميع رجلا واحدا ·

وأصلح أشكال الحكم عنـــده هى الملكية الوراثيـــة وبخاصة اذا كانت تنتقل من ذكر الى ذكر ، ومن الابن الأكبر الى الابن الأكبر ، وتركيزه عـــلى الذكر يرجع الى اعتقاده أن النســـاء خلقن للطاعة ولينصبن عـــلى أنفسهن سيدا ، اذ يتزوجن ·

وملكية بوسوى نظام مقدس ، والملوك يباشرون مهامهم كوزراء لله عـــلى الأرض ، ومن ثم فالتعدى عليهم عيب فى الذات الالهية ، فشخص الملك مقدس لأن مهمته مقدســـة ، ويباشرها بوصفه ممثـــلا للعناية الالهية ، ونائبا عنها فى تنفيذ ارادتها ·

فطاعة الملوك طاعة لله ، والملوك مكلفون بأن يكونوا أمناء فى أداء رسالتهم ، وان كانوا لا يسألون عن ذلك الا أمام الله وحده ، ويحتم على الرعايا اطاعـة الأمير ، حتى ولو كان فاجرا ، بل وحتى لو كان كافرا ··

الحكم المقيـــد

اذا كانت فكرة العقد السياسى ترجع الى العصر الوسيط ، تبريرا لمقاومة الجمـــاعات فى اطار الدولة الاقطاعيـــة للسلطة للملكية ، فان نفس الفكرة استخدمت لتأييد أن الشعب صاحب السيادة ٠

وبعد اضطهاد البروتستانت ، شاعت الكتابات البروتستانتية المناهضـــة للحكم المطلق فى القرن السادس عشر ٠

وفى القرن السابع عشر دعا المفكر البروتستنتى بييرجيريه Jurieu الى نصرة الشعب وتبرير حق المقاومة ، واعتمد على فكرة العقد وسيادة الشعب عنده حقيقة مؤكدة ، والشعب لم يتخل فى الميثاق الذى أبرمه مع الأمـــير عن سيادته ، وانما فوض الأمير فى مزاولة السيادة مع احتفاظ الشعب بحـــق الرقابة ، ويرى أن السيد المسيح أقر حق المقاومة ، وهنا يتعين طاعة السلطان فى اطار الحدود المتفق عليها ، واذا تعدى الحدود فلا طاعة له على أحـــد ، وجازت مقاومتـــه ٠

وهناك ثلاثة من مفكرى القرنين ١٧ ، ١٨ وهم : لوك ومونتسكيو وروسو دافعوا عن سيادة الشعب ٠

جـــون لـــوك

١٦٣٢ - ١٧٠٤ م

اذا كان هوبز قدم كتاب « الوحش » حجة للحكم المطلق ، فان لوك قدم فى كتابه « الحكومة المدنية » حجـــة سيادة الشعب ودرس لوك فى جامعـــة اكسفورد ، واشتغل بالعلوم الطبيعية والسياسية والطب ، وكان معتل الصحة لا يلائمه جو لندن ، بسبب ضعف فى الرئتين ، وقد يساهم ذلك فى اشـــتغاله بمهنة الطب ، بالاضافة الى انكبابه على الفلسفة .

وفى كتابه « الحكومة المدنية » يتبين سعى لوك الى رضا الشعب ، وبدأ بحـــالة الطبيعة وبالعقد السياسى الذى تولدت عنه الجماعة السياسية ، أى الحكومة المدنية ، وكان يسعى لتدعيم الحـــريات العامة ، فعنـــد لوك حالة الطبيعة هى حالة المساواة والحرية الكاملة والعقل الطبيعى يعلم الناس أنهم جميعا سواسية مستقلون عن بعضهم بعضا ، والطبيعة لا تجيز الشر والتعدى على حقوق الآخرين ، لأنها ترخص لكل انسان أن يحمى الضعيف من المعتدى ، وأن يقتص له منه ، وهذا هو حق المعاقبة الطبيعى ، ومن أبرز الحقوق الطبيعية للانسان فى حالة الطبيعة حق الملكية ، فالأرض كانت شائعة بين الناس ، ولكن العقل اقتضى استعمالها لتحقيق أكبر نفع ، مما تطلب التملك الفردى لثمـــار الأرض ، ثم الأرض ذاتها ، وهذا التملك يرتكز على عمل الانسان ، وتحد منه قدرته على الاستهلاك ، أى ان حالة الطبيعة حالة طيبة ، والانتقال الى حالة الجماعة يعنى الانتقال من الطيب الى الأطيب ، فحالة الطبيعة كانت تنقصـــها القوانين التى تنشأ معبرة عن الرغبة العامة . والقضاة غير المنحازين وسلطة تنفذ من تنفيذ أحكامهم ، وهذه العناصر تتوفر فى حالة الجماعة ، ولذلك فضل الانسان الانتقال من الحالة الأولى الى الحالة الثانية .

والرضا وحده هو الذى تتولد عنه الجماعة السياسية .

والجميع أطراف فى العقد عند لوك ، بما فى ذلك الهيئة الحاكمة ، ليلتزم الجميع به ، والبشر لم يتنازلوا عن حرياتهم وحقوقهم الطبيعية جمعاء ، وانما عن ذلك الجزء اللازم لحماية وتدعيم ما تبقى لهم ، والعقد ينشىء هيئة سياسية مقيدة للسلطات ، واذا تعدت سلطاتها انحل الرباط بينها وبين الشعب ، مصدر كل السلطات ، وأصبحت مقاومتها مشروعة ، لأنها ذاتها أصبحت غير شرعية ، فاذا تعسف من يتولون السلطة ، أو استعملوها على غير مقتضى العقد كان للشعب أن يباشر سلطته العليا باللجوء الى الوسائل السلمية ، واذا لم تفلح كان عليه أن يلجأ الى القوة .

اى أن سلطة الدولة ومشروعيتها تبقى اذا حرصت على صيانة هذه الحريات والحقوق ، والا تصبح مقاومتها مشروعة وواجبة .

●●●

مونتسكيو

١٦٨٩ - ١٧٥٥ م

ولد مونتسكيو فى أسرة نبيلة ، على مقربة من بوردو ١٦٨٩ م · وتوفى فى باريس ١٧٥٥ م · وقد كرس عشرون عاما من حياته لاخراج كتاب « روح القوانين » عام ١٧٤٨ م · L'Esprit des lois ونشر للمرة الأولى فى جنيف بدون اسم المؤلف ، وأعيدت طباعته ٢٢ مرة فى عامين ، وهنـــاك مؤلفات أخرى له ، وكاد أن يفقد بصره من جراء جهوده فى هذا الكتاب ·

ويتميز فكر مونتسكيو بكراهيته للاستبداد السياسى ، والاستبداد وباء يهدد بتحطيم الكيان السياسى ، وتسعى كل الأمم لتحصين نفسها ضده ·· وكراهيته للاستبداد السياسى جعلته لا يثق بالديمقراطية الصرفة التى تؤدى الى الفوضى أو الاستبداد ، وكراهيته للاستبداد جعلته يحذر من الغلو فى المساواة لأنه يؤدى الى فوضى ·

ويرى الارستقراطية نظـــاما معتدلا ، فالنظام الارستقراطى يعد عنـــده ديمقراطية معتدلة لا تدع مجالا للاستبداد ، أو الطغيان ، انها ارستقراطيـــة النبلاء الوراثية وتضمن الاعتدال والاستقرار ، ولكنـــه ذهب الى أبعـــد من الارستقراطية لينشد الكمال فى غيرها ، ففى الارستقراطية ما قد يحولها الى الاستبداد ، فالارستقراطية وراثية تخص بالحكم طبقة معينة بحـــكم مولدها وتربيتها ، وهى بهـــذا تستجيب لتركيز السلطة فى يدها ، ممـــا يؤدى الى تركيزها فى يد قلة ثم يد واحدة ، وهنا يكون الاستبداد · والملكية أيضـــا بها العيوب ، ولذلك فقد اتجه الى الحكومة المختلطة التى تجمع بين أشـــكال الحكومات المختلفة وتوفق بينها · وتقف أمام الاستبداد ، انهـــا الملكيـــة الارستقراطية المرتبطة ببعض نظم ديمقراطية · ففى الملكية رئيس واحد ، وهذا يحقق القوة ويحكم بقوانين ثابتة ، وبقائها يعوق انزلاقه الى الهوى ، وهـــذا يفترض قيام سلطات تتوسط الملك والشعب ، وهيئة أمينة عـــلى القوانين ،

بالاضافة الى الهيئة الأمينة على القوانين التي تقيد سلطات الملك ، وتحمى المواطن ، أما الشعب فينبغى أن يشترك فى الشئون العامة ، ولذلك يختار ممثلين له ٠

ولا تكفل الحريات السياسية الا فى اطار حكومة مختلطة ، والحرية السياسية عنده هى الحق فى عمل كل ما ترخص به القوانين ٠

وطالب مونتسكيو بالفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية ضمانا للحرية ٠

وبهذا ساهم مونتسكيو فى قيام المذهب الحر ، أو العقيدة الليبرالية ، وكان لأفكاره عن فصل السلطات تأثير بالغ فى رجال الثورة الفرنسية ١٧٨٩ م ووثائقها ودساتيرها ، بل والدستور الأمريكى من قبل ٠

جان جاك روســـــو
١٧١٢ - ١٧٧٨ م

ولد فى جنيف عام ١٧١٢ م · من أسرة فرنسية الأصل ، ومات عـــلى مقربة من باريس ١٧٧٨ م ، وماتت أمه اثر ولادته ، وكان والده عصبى المزاج وشرد فى صـــباه ، وكان يحترف كل ما يصادفه ، وعمـــل فى أشرف المهن وأحقرها ، ومنها حفار وموسيقار وسكرتير سفارة ومدلل نساء ، وفى بعض الأحيان يكاد يكون لصا ، وفضلا عن ذلك كان كثير القراءة ، وكان ضعيفا أمام المتع الرخيصة · كل هذه الأمور أثرت فى فكره السياسى · فكان متناقضـــا فتارة تستهويه الطبيعة فيهاجم المجتمع وتقاليده ، وتارة يقدس الجماعة ، ولما بلغ الأربعين ألقى دروسا على مجموعة من علية القوم رجالا ونساء ، فخـــاب أمله وفقد ثقته فى كثير من أفكاره السابقه ·

ويهمنا من كتبه كتاب « العقـــد الاجتماعى » Le contrat social الذى نشر فى أبريل ١٧٦٢ م ·

وبينما دعا فى كتبه للعودة الى الطبيعة ، نراه فى العقد الاجتماعى يقدس الجماعة ، وبينما يبـدو فى كتبه الأخـــرى رجل الحرية ، نراه فى العقـــد الاجتماعى يرعو الى دولة مطلقة من غير قيد ــ دولة السيادة فيها للشعب

وفى كتابه « العقد الاجتماعى » يقول : « يولد الانسان حرا ، ولكنه يكبل بالاغلال فى كل مكان ، واذا كان روسو قد نادى فى كتاباته بأن الجمـــاعة ليست شرعية فى شىء ، وما تطالب به الأفراد بالتضحية بشىء من ذواتهم ، ليس بدوره أمرا مشروعا » ، فانه هو نفسه الذى راح فى « العقد الاجتماعى » يقـــول : « ان الأفراد يدينون لها بالتضحية بذواتهم ، وبالتـــالى فليس من حق الا حقها » ·

والفكرة الأساسية فى عقد روسو أن صاحب السيادة هم الناس جميعا ،

وكل فرد عبد لهذا « الكل » الذى له أن يفرض عليه ما يشاء من القيود ، أى ان هذا السيد المطلق « الكل » يتسلط بقوانينه المعبرة عن الارادة العـــامة : Volonté générale عـــلى الفرد ، أى ان الكل يعبر عن الارادة العامة بقانونه المـــدنى والسياسى والدينى ، والكل يملك جســـد الانسان ووعيه وروحـــه ٠

ان الذى يقلل من شأن الانسان هو أن يجبر على طاعة كائن ليس أفضل منه ، بينما لا تتأثر كرامة الانسان ٠ ان وضع حريته فى يد الجماعة ، وعلى الفرد أن يقر لها السيادة التى يعبر عنها من خلال القانون ٠

ولا يجوز أن تكون السيادة محلا للتصرف ، لأنها ليست الا مزاولة للارادة العامة ٠٠ والارادة العامة هى ارادة الشعب بأسره ، وليست ارادة أجزاء منه ، والا كانت ارادة خاصة لا عامة ٠

ودولة روسو هى دولة الشعب ، والسيادة فيها للكل الذى يستبد بأجزاء الكل ، وهنا فالحكومة شىء وصاحب السيادة شىء آخر ، والحكومة هيئة تقوم بين الرعايا ، أى ان الحكومة لا سيادة لها ، وانما هى من صاحب الســـيادة « الكل » بمثابة وزير له ٠

ويرى روسو فى الديمقراطية الصرفة أمثل أشكال الحكومات ، أما النظام النيابى فهو بعيد عن الديمقراطية الصرفة أو يليهـــا ، لأن نواب الشعب لن يستطيعوا أن يكونوا ممثليه وهم ليسوا الا مندوبوه ، وبالتالى فكل قانون لم يقره الشعب بنفسه يعتبر باطلا ٠

ومهما كانت الانتقادات الموجهة لروسو ، فقد كان لعقده الاجتماعى دور فى تدعيم الديمقراطية ، كما كان له صدى فى وثائق اعلان الاستقلال ودساتير الولايات الأمريكية ٠

ادمـــون بيرك

أيد بيرك نظام الحكم الارستقراطى ، بما يتعارض مـع الحياة السياسية التى كانت سائدة فى عصره ، ولا سيما فى الربع الأخير من القـــرن الثامن عشر ، والأفراد وجدوا على الارض ووجدت معهم علاقات اجتماعية من تنظيـم الخالق نفســـه ٠

ويقول : ان الله الذى خلقنا خلق معنا المكان ونظم حياتنا بطريقة لا دخل لنا فيها ٠٠ وهناك محل للقول بوجود عقد اجتماعى دخله الأفراد طواعيـــة لتنظيم علاقاتهم ٠

ويعترف بيرك بقوة الرأى العام ، فهو أقوى سند للدولة ، والرأى العـــام يعتمد كلية على صوت الشعب ، ولذلك يؤيد مطـالب المستعمرات الأمريكية ، ولكن لم يكن مستعدا للاعتراف بأن السيادة فى انجلترا ملك للشعب ٠

وملبرلمان هو الهيئة الوحيدة التى تفصل فى مدى أحقية مطالب الشعب ، أى أنه يؤكد أن لبرلمان هو الذى يملك السيادة فى انجلترا لا الشعب ٠ وهذه النظرية ليست مطلقة ، فقد تكون السيادة فى دولة معينة ملك للملك ، وقـــد تكون ملكا لجماعة قليلة من الناس ٠

ودستور الدولة ينشأ من جراء التقادم ، ويستمد قوته لكونه نشأ منـــذ زمن بعيـــد ، والحكومة نشأت لخدمة مصالح الشعب ، ويدعو الى الحـرية الاقتصـــادية ٠

وفى الواقع ، فان بيرك يتمسك بنظرية الحق الالهى ، ورغم ذلك يعتقد أن الشعب قوى ، والحكام وان لم يكونوا ممثلى الشعب الحقيقيين الا أنهـــم ممثلوا الشعب الواقعيين ٠

جـــيرمى بنثـــام

فى عام ١٧٩٣ م نشبت الحرب بين انجلترا وفرنسا ، وفى هـــذا الاطار ظهرت اتجاهات معادية لمبادىء الثورة الفرنسية ، وخاصـــة مبـــدأ السيادة الشعبية ، ومع وقف الحرب عام ١٨١٥ م ٠ تزايد الايمان بالنظام الديمقراطى وعدم الايمان بالحكم الارستقراطى ، الذى أيده بيرك ، ونظـرا لآثار الثـــورة الصناعية ، ودور الطبقة العمالية ، تحولت حركة الاصـــــلاح فى انجلترا من المطالبة بحقوق الطبقة المتوسطة فقط الى المطالبة بحقوق طبقات الشعب بأكمله كما ظهرت الحركة الايفانجيليكية التى اعتمدت على تعاليم الانجيل ، وساهمت فى تعليم الطبقـــة العاملة ، كما أكد دور الطبقة العاملة ٠ وحيث أن المشكلة الأساسية فى انجلترا كانت مشكلة الفقر ، مما أثر على بنثام وجعله يركز على « حق السعادة » ٠

وأكد بنثام على مبدأ المنفعة من خلال التوفيق بين مطالب الفـرد ومطالب المجتمع ، والألم والسعادة هما القوة الدافعة للأفراد ، فالغرض من جميع أعمال الفرد هو تحقيق المنفعة أو السعادة ، وبما أن الفرد هو الذى يشعر بالألم او المتعة ، وبالتالى فمقياس ذلك يجب أن يترك للفرد ، ورغم ذلك حاول ايجـــاد مقياس علمى للألم والمتعة ٠

والمتعة والألم يحتويان على عدة عوامل هى الكثافة والمدة والتأكد والنقاوة ومدى انتشارها ، ووضع قائمة تحتوى على ١٤ متعة بسيطة ، و ١٢ ألما بسيطا واعتبرها أساسا لكل المتعات والآلام فى المجتمع ٠

وقد توصل بنثام الى مبدأ أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من البشر ، والمنفعة تعنى تأييد أو معارضة أى عمل تبعا لما يتضمن الميل نحو زيادة أو تقليل ســـعادة الفـــرد ٠

والوظيفة الأساسية للحكومة هو نشر السعادة فى المجتمع ، باعطاء المكافآت

أو فرض العقاب ، أو الجزاء لنشر السعادة الى أقصى حد ممكن ، وتخفيف الألم الى أقل حـــد ..

واقترح بنثام عدة تعديلات فى الدستور الانجليزى ، بزيادة عدد المتمتعين بحق الانتخاب ، واعادة الانتخاب سنويا .

وقد أثرت أفكار بنثام على النظام السياسى فى بريطانيا ، وذلك بتزايد تدخل الحكومة للحد من حرية الأطفال فى العمل ، وحرية الوالد فى تشغيل أولاده ، وتحديد ساعات العمل ، وبدأت الاصلاحات الدســـتورية فى تعميم حق الانتخـــاب .

جـــون ســـتيوارت ميـــل

ذكر ميل فى كتابه « الحرية » ان السعادة يجب أن تكون كيفية وليست كمية ، كما ذهب بنثام ٠

وذهب ميل الى أن الفرد وحده يجب أن يكون الحكم النهائى لكل ما يقوم به من أعمـــال ، وتقدير السعادة نسبى ، والحكام لا يمثلون كل الشعب ، بل يمثلون الأغلبية وحاول أن يحد من سيطرة المجتمع ، وأن يجعل للفرد شخصيته المستقلة ، ولا يحق للمجتمع أن يتدخل فى حياة الفرد الا لحمـــاية النفس أو الدفاع عنهـــا ٠

وتتمثل الحريات الضرورية للفرد فى حرية التعبير ، وتشمل حرية العقيدة وحـــرية التفكير ، وحرية الرأى ، بالاضافة الى حرية العمل ، وحرية التجمع بين الأفـــراد ٠٠

والغرض من الدولة هو تنمية القدرات الثقافيـــة فى الفرد ، والمشـكلة العاجلة لنظـــام الحكم هى توزيع القـــوى ، بحيث يكون الاشراف الحقيقى للفئـــة المثقفـــة ٠

ويرى أن اختيار الحكام يجب أن لا يترك للجماهير الجاهلة ، ويدعو الى نظام التمثيل النسبى فى الانتخابات ، مع اقامة وزن أكبر للكفايات ، وان كان يرى أن من الظلم أن يحرم أى فرد من حق الادلاء بصوته ورأيه فى المســـائل التى تؤثر على حياته ، فقد كان مهيئا لتأييد حرمان الطبقة الجاهلة من حـــق التصـــويت لأنه يرى أنها غير قادرة عـــلى ممارسة ذلك الحق ، ويقيد حق التصويت بقدر معين من التعليم ٠ وهنا يقول من غير المناسب أن تسـمح لأى فرد بالاشتراك فى الانتخابات ما لم يكن قادرا على القراءة والكتابة ، مع الالمام بمبادىء الرياضيات ، ولذلك دعا الى تعميم التعليم ٠

وأهم وظيفة للبرلمان هى موافقة الحكومة والاشراف عليها ، كمـــا يعتبره لجنة تظلمات لأفراد الشعب ، بالاضافة الى كونه مجمع للآراء ٠

وأكد مسئولية الوزراء .. أما البرلمان فهو غير قادر على اصدار القوانين نظرا لكثرة عدد أعضائه ، وعدم تخصصهم فى المسائل القانونية من ناحيـــة أخرى ، ولذلك يقترح قيام لجنة تسمى « لجنة التشريع » وتتكون من عدد صغير من خبراء القانون ، وتعد القوانين ، ولا يحق لها اقرار القوانين ، فهـــذا من سلطات البرلمان ، وهى هنا تصبح لجنة خفية

ولقد كانت لأفكار جون ستيوارت ميل تأثير كبير عـــلى النظام الرأسمالى الديمقراطى وتقويته فى مواجهة التيارات الاشتراكية التى تدعمت ابتـداء من منتصف القرن التاسع عشر .

● ● ●

الماركسية

خرج كارل ماركس الى حيز الوجود سنة ١٨١٨ م . على أرض مدينة تريف بألمانيا ، وفى اطار عائلة يهودية برجوازية ، وكان جده حاخام ، وعمل أبوه بالمحاماة وترك اليهودية واتجه نحو العقيدة البروتستانتية ، وكان كارل ماركس فى الخامسة من عمره ، وقد ترك والده اليهودية حتى يمكن أن يبرز فى مهنته بين أفراد يكتون مشاعر غير مواتية لليهود .

ودرس ماركس القانون والتاريخ فى جامعتى بون وبرلين ، وحصل على درجة الدكتوراه فى الفلسفة عام ١٨٤١ م . وأراد أن يعمل بالتدريس الجامعى ، غير أن ميوله السياسية جعلت الجامعات ترفضه ، ولذلك عمل بالصحافة المتطرفة .

وبسبب تطرفه ، ومقاومة السلطات له ، هاجر الى باريس سنة ١٨٤٣ ، وهناك قابل فردريك أنجلز ، والأخير من أسرة برجوازية ألمانية ، وكان والده قد أرسله الى انجلترا ليمارس التجارة ، واشترك ماركس وأنجلز فى التأثر بفلسفة هيجل .

ولحق أنجلز كارل ماركس فى بروكسل ، واشتركا معا فيما بين ١٨٤٠ ، ١٨٤٦ م . فى وضع نظرية المادية الجدلية Materialisme Dialectique وعرفت أيضا بالمادية التاريخية ، ويطلق على الاشتراكية الماركسية : « الاشتراكية العلمية » Scientific Socialism بمعنى أنها تختلف عن الاشتراكيات السابقة فى أنها ليست خيالية ، وتعتمد على أسس يمكن اعتبارها أكثر علمية .

الديالكتيك :

اعتمدت الماركسية على ديالكتيك هيجل ، وهى باختصار أن كل فكرة تحمل فى طياتها بذور فنائها فتؤدى الى ظهور نقيضها ، والنقيض يؤدى الى

ظهور نقيض النقيض ، أو الفكرة الجامعة ، واذا كان هيجل وضع هذا التطور فى اطار الديالكتيك على أساس مجرد فان ماركس استخدم هـــذا الجدل على أساس ملموس كصراع الطبقات مثلا ٠

وتأتى فلسـفة ماركس للتاريخ بافتراض أن العـــالم المادى هو الحقيقة الكبرى ، أما الفكر والشعور ، فهو تأملات تصاحب هذه الحقيقـــة ٠ وبالتالى فالتغير فى عمليـــة الانتاج أدت الى تغيرات فى التركيب الطبقى وعـــلاقات الملكيـــة ٠

الصراع الطبقى : -

ويتمثل الجـــانب السياسى لنظـــرية ماركس فى صراع الطبقـــات : class struggle وثورة البروليتاريا «الكادحين Proletarian Revolution ويعمل الكادحون على أخذ السلطة من البرجوازيين ، وذلك بالغاء الملكية الخاصة للأرض ، وفرض ضرائب تصاعدية ، والغاء حق الارث ، والاستيلاء على أملاك المهاجرين والخارجين على النظام ، والمتمردين ، وتركيز ملكية الدولة لجميع وسائل النقل والمواصلات ، وتركيز الثروة فى الدولة من خلال بنك وطنى ، وتزايد دور الدولة فى مجالات الصناعة والزراعـــة والمساواة فى مســـئولية العمل ، وازالة الفـــوارق بين الحيـــاة فى المدينـــة والحيـــاة فى الريف ، والتعليم المجـــانى ٠

وبعـــد انتشار ثورة البروليتاريا ، ستبقى الدولة السياســـية ضرورة لاستكمال تحطيم الطبقة البرجوازية ، وفى النهاية لن تبقى الا طبقة الكادحين ، وهنا لن تكون هناك حاجة للحكومة ، وبالتالى ستتلاشى الدولة ٠

withering away of the state التى وضحها أنجلز ، فقال ان الوظائف العامة ستفقد صفتها السياسية وتتحول الى وظائف ادارية بسيطة ، ولكن لم يفسر بوضوح هاتين الوظيفتين

والدولة عند ماركس أداة لسيطرة طبقة على أخرى ، وحيث أن المجتمع سيتحول الى مجتمع لا طبقى ، فان اختفاء الدولة يصبح حتميا ٠

نظرية القيمة وفائض القيمة : sterplus vatue

وفيما يتعلق بالجانب الاقتصادى للنظرية الماركسية ، فقد تأثرت بالنظريات السابقة ، مثل نظرية ريكاردو فى القيمة ، فالرأسماليون يسيطرون على الكادحين ، وذلك بانتزاعهم فائض القيمة من العمال ، ويعتمد ماركس هنا على أفكار ريكاردو وماكاوتش التى تقول أن قيمة السلعة تحدد بمقدار العمل الذى يبذل فى انتاجها ٠

وقبل ماركس استخدم وليم تمسون نظرية ريكاردو لاثبات حق العمال فى كل ما ينتجه عملهم ، أما ما يحصل عليه الرأسماليون كالأرباح والايجارات والفوائد فيعد اغتصابا من العمال ٠

ويقول ماركس : ان الرأسمالى يدفع للعامل جزءا من انتاجيته ويحتفظ لنفسه بالباقى ، والباقى المتمثل فى الايجارات والفوائد والأرباح يسميه ماركس : فائض القيمة ٠

ويؤكد ماركس أن العامل يستغل عن طريق انتزاع فائض القيمة ٠

ولا يمانع ماركس فى اعتبار العقول التى تدير وتنظم العمل مشاركة فى انتاج القيمة كاشتراك العامل اليدوى ٠ أما التسويق وتوزيع الانتاج فيرفض اعتبارهما مشتركين فى انتاج القيمة ٠

وقد ذهب أتباع ماركس الى أن الاستعمار هو أعلى مراحل الرأسمالية ، ولذلك فهو يضاعف من قيودها ويؤدى الى نشوب الحروب ٠

تراكم رأس المال : -

يرى ماركس أن تراكم رأس المال accumulation ينتج عن أن

فائض القيمة يستغل فى معظم الأحيان كرأس مال جديد لزيادة الانتاج وتنويعه نحو فائض قيمة أكبر ٠

وتتمثل أسباب تراكم رأس المال فى حب القوة والسيطرة والمنافسة ، فالغنى والجشع عنصر أساسى فى الرأسمالية ، وفى نفس الوقت تضطرد قدرة الرأسمالى على البذخ ، مع تزايد فائض القيمة ٠

وهكذا تتطور الرأسمالية وما يرتبط بذلك من القضاء على المنافسة ، وتدعيم الاحتكار ، وهنا يبرز التركيز وتتجسد تناقضات الرأسمالية المتمثلة

law of increasing misery	فى قانون البؤس المتزايد
the failing rate of profit theory	ونظرية معدل الربح المتناقص
Dictatorship of the proletariat	ثم دكتاتورية الكادحين

قانون البؤس المتزايد : -

تتمشى زيادة بؤس العمال مع تقدم الصناعة ، فالحرص على زيادة فائض القيمة ، يعنى الاستمرار فى الاستغلال للقوى العاملة ، مما يعنى البؤس المتزايد للعمال ٠

وارتبط الاستغلال الرأسمالى باستغلال النساء والأطفال ، وما أدى اليه ذلك من ارتفاع نسبة الوفيات ، والانحلال الخلقى ٠

ويرى ماركس أن الآلة تعد عدوا للعمال ، وتزيد من البطالة ، ويقع اللوم هنا على الرأسماليين ، فالآلة فى حد ذاتها تمثل انتصارا على الطبيعة ، كما أنها يمكن أن تحد من ساعات العمل ، ما الآلة عند الرأسمالى فهى أداة ضد العمال ٠

وتعرض ماركس للعامل السيكولوجى فى مواجهته لطغيان الرأسمالى ، أى انه فى النظام الرأسمالى يتزايد الفقر مع تزايد البؤس ٠

نظرية معدل الربح المتناقص . -

يرى ماركس أن النمو السريع فى تراكم رأس المال يجب أن يسايره تناقص بنفس السرعة فى معدل الربح ، وان كانت هناك عوامل أخرى قد تؤثر بشكل مضاد ، ولذلك فقد استعمل اصطلاح « ميل معدل الربح للتناقص » ، ومن هذه العوامل زيادة سرعة الآلات ، وزيادة ساعات العمل ، أى زيادة فائض القيمة ، أى زيادة الربح . كما أن جيش العاطلين الاحتياطى يتيح سوقا منخفضة التكاليف من الأيدى العاملة ، وهنا يمكن ارتفاع معدل الربح .

ورغم هذه العوامل ، هناك ميل لتناقص معدل الربح ، وهنا فان ماركس يرى أن الرأسمالية تصنع نهايتها بنفسها .

دكتاتورية البروليتاريا : -

وطبقة الكادحين فى المجتمع الجديد تمثل غالبية الشعب وليست مفروضة عليه ، بينما تمثل الدولة فى النظام الرأسمالى مصالح الأقلية .

والبروليتاريا هى التى تؤسس المجتمع الاشتراكى ، ولذلك فقد جاء فى نهاية البيان الشيوعى the communist manifesto

« يا عمال العالم اتحدوا » .

كما أن البروليتاريا أكثر الطبقات ثورية ، نظرا لأنها لا تشترك فى ملكية وسائل الانتاج ، أى أنه ليس لديها ما تفقده فى الثورة .

الـــــدين : -

يزعم ماركس أن الدين من صنع العقل البشرى ، وعالم الدين انعكاس للعالم الواقعى الذى يعيش فيه الانسان .

والدين فى الحياة البدائية وليد القوى الخفية ، للسيطرة على حياته اليومية ..

يرى ماركس أن المسيحية نظام دنيوى نابع عن حاجات المجتمع ، وعند وصلت البرجوازية الى السلطة فى أوروبا عملت على أن تكون دينا لها ، ومن هنا كانت البروتستانتية احتجاجا على الكاثوليكية ٠

ويرى ماركس أن البروتستانتية عقيدة الرأسمالية ٠

ويزعم ماركس أن الدين لن يكتب له الاستمرار والبقاء ، وعندما يسيطر الانسان على الآلة ، فيصبح لا حاجة له للدين ، بل ان القضاء على الطبقات سيؤدى الى ذبول الدولة ، وهنا ينتهى الدين الذى كان يعكس المفارقات ٠

الاشتراكية : المرحلة الأولى للمجتمع الجديد

الشيوعية : المرحلة الثانية للمجتمع الجديد

ينقسم المجتمع الجديد الى مرحلتين : الأولى هى الاشتراكية ٠ والثانية هى الشيوعية ، اذ أن الدولة تختفى نهائيا فى الشيوعية ٠

واذا كانت الاشتراكية تسير وفقا لمبدأ « لكل حسب مقدرته » ٠
each according to his work

فان الشيوعية تسير وفقا لمبدأ « لكل حسب حاجته »
each according to his needs.

الماركسية فى اعقاب ماركس : -

قام لينين بدور كبير فى تطبيق الماركسية ، وفى الفترة من ١٨٩٣ حتى ١٩٢٣ م ٠ كتب لينين مئات المؤلفات والمقالات ، ومن مؤلفاته « تطور الرأسمالية فى روسيا » ونشر عام ١٨٩٩ ، وكتاب « الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية » وكتبه عام ١٩١٦ م ٠

وخلص لينين الى امكانية قيام الثورة الشيوعية فى روسيا ٠

والامبريالية عنده هي الرأسمالية في مرحلة الاحتكار ، ويتحدث لينين عن المساواة بين القوميات في الحقوق بما في ذلك الدفاع عن حقوق الأقليات ، كما أنه يدافع عن الدولية البروليتارية ٠

وأيد حق تقرير المصير ، وعرف هذا الحق بأنه حق الأمم في الاستقلال ، بالمعنى السياسي ، وفي حرية الانفصال السياسي عن الأمة المتسلطة المضطهدة ٠

واذا كان لينين قد عارض التعصب القومي فقد عارض الانفصال أو استقلال الثقافات الوطنية لان ذلك يقوى من التعصب الوطني ٠

وتحدث لينين عن التعايش السلمي بصفته سيمكن الدولة السوفيتية من الصمود بصفتها كانت جزيرة في بحر من الرأسمالية ومن هنا كان التعايش السلمي مع هذه النظم ٠

أما تروتسكي فكان عضوا في الحزب البلشفي في الفترة من ١٩١٧ - ١٩٢٧ ، وكان على خلاف مع لينين ثم مع ستالين ٠

وفي ١٩٢٧ طرد لينين من الحزب ، ثم نفي من الاتحاد السوفيتي عام ١٩٢٩ ، وتنقل بين تركيا ودول أوروبية أخرى ثم استقر في المكسيك الى أن أغتيل عام ١٩٤٠ ٠

وكان تروتسكي من انصار الثورة العالمية ورأى استحالة استمرار الثورة في روسيا ما لم تتمسك البروليتاريا بزمام الامور في كل أو معظم أوربا الغربية على الاقل ٠

اتعرض تروتسكي للصلة الوثيقة بين الاقتصاد الوطني والاقتصاد العالمي ، وقال اذا كانت قوى الاقتصاد السوفيتي تكمن في تاميم وسائل الانتاج فان ضعفه يرجع الى التخلف الموروث بالاضافة الى العزلة ومن هنا

كانت عدم قدرته على الوصـــول الى موارد الاقتصـاد العالمى حتى ولو على أساس رأسمالى ومن هنا فان ازمات الاقتصاد السوفيتى لا تحـل الا بتعاون اشتراكى للقوى الانتاجية على نطاق عالمى وهذا له صلة بمفهوم تروتسكى عن الثورة العالمية ٠

أما ماوتسى تونج فقد كيف الماركسية مع ظروف الصين المتخلفه عنـدما قامت فيها الثورة عام ١٩٤٩ ، ولذلك فان ماو يرى أن الماركســـية يجب أن تأخذ شكلا قوميا قبل أن يمكن تطبيقها وليست هناك ماركسية مجردة ٠ واذا كان هناك شيوعى صينى يشكل جـــزءا من الشعب الصينى ويتحـــدث عن الماركسية دون النظر الى الخصوصيات الصينية ، فان الماركسية هنـــا تعد مجرد تجريد فارغ ٠

وأكد ماو على اتحاد الجماهير الشعبية وحدده بالفلاحين والعمال والطلبة والنساء وفى عام ١٩٢٠ أكد ماو على الدور القيادى للكادحين ، واكد فيما بعد على دور الفلاحين فى الثورة ، وان فقراء الفلاحين ناضلوا بشدة واعتبروا أن البروليتاريا الصينية هى الطبقة القائدة فى الثورة الصينية ٠

وفى ١٩٢٣ دافع ماو عن التحالف مع البرجوازية ورأى فى التجـــارة قوة قائدة فى الثورة ٠

ويقول الكاتب الفرنسى ماكسيم رودنسون أن ماوتسى تونج أول من تجـرأ على الحديث عن المتناقضات داخل المجتمعات الاشتراكية ، وهناك تناقضات عدائية وهى التناقضات بين الشعب وعدوه ، والتناقضات غير العـدائية وهى داخل الشعب نفسه أى التنقاض داخل طبقـــات التحالف ، وهى العمـــال والفلاحين والمثقفين والبرجوازية ٠

ومن التناقضات العدائيـــة : التناقضات الايديولوجية داخل الحـــزب الشيوعى ، والتى يمكن نشوبها ، ومن أمثلة ذلك الاختـــلافات داخل الحزب الشيوعى السوفيتى بين لينين وتروتسكى وبوخارين ٠

وتحل المتناقضات العدائية باستئصال العناصر المضـــادة للثـورة أما التناقض بين البروليتاريا والبرجوازية فيحل من خلال الثورة الاشـتراكية ، وفى ١٩٦٥ بدأت الثورة الثقافية فى الصين بتوجيه من ماوتسى تونج ، وتقول بعض المصادر أن دوافع الثورة الثقافية تكمن فى مواجهة الردة ، عن افـكار ماو داخل قيادات الحزب الشيوعى الصينى واعتمد ماو على الحرس الاحمـر واللجان الثورية والجيش فى هذا الصراع • ويمكن أن تفسر هـذه الثورة فى اطار التناقضات داخل المجتمع الاشتراكى •

● ● ●

تقويم النظـــرية الماركسية

لا مجال هنا للتعرض بالتفصيل لتقويم النظرية الماركسية ، فهـــذا الموضوع متشعب وله جوانب كثيرة ، وسنكتفى هنا بابراز بعض معالم التقويم كمـــا يلى : -

● أخذ ماركس الديالكتيك عن هيجل واستخدمه استخداما آخر غير الاستخدام الأصلى له ، واستخدم ماركس هذا الديالكتيك مع نظريات أخـــرى لتبرير سقوط الرأسمالية وقيام الاشتراكية ثم الشيوعية ، وعند ذلك لا يســـتعمل ماركس الديالكتيك لانه عند الشيوعية فى مفهومه يقف الامر عند هذا الحد •

وهكذا يتناقض كارل ماركس مع نفسه ، فبينما يستخدم الديالكتيك فى مهاجمة النظم الأخرى ، من خلال القضاء عليها ، نجده لا يستخدم هذه الحجة عندما تقوم الشيوعية وبالتالى فاذا استخدمت حجـــة ماركس فى الديالكتيك بشأن الشيوعية ، لكان ذلك يعنى ان الشيوعية بدورها تحمـــل فى طياتهـا بذور فنائها ، وبالتالى سيولد نظام اخر وسيستمر التطور ولن يتوقف •

● يضخم ماركس الصراع الطبقى ويجعله مفسرا أساســـيا لنظـــرته ، ولا يتعرض لمفسرات أساسية اخـــرى هامة مثل العامل الدينى أو الروحى أو العامل الانساتى ، وبالتالى فان هذا التفسير يسقط عـــوامل اخـــرى هامة للغاية •

● تتنافى نظرية فائض القيمة مع الواقع الاقتصادى بل ومع ما هو سائد حاليا فى الدول التى تعتنق الماركسية ، وبالتالى فان الواقع يبين أن استخدام ماركس للنظرية غير صحيح ٠

● هناك هوة كبيرة بين ما توصل اليه ماركس بشـــأن تراكم رأس المال والبؤس المتزايـــد والربح المتناقص ٠ ودكتاتورية البروليتـــاريا من جانب والواقع من جانب اخر فالبؤس المتزايد غير موجود فى النظام الرأسمالى ولعل هروب سكان برلين الشرقيـــة الى برلين الغربيـــة لاكبر دليل على البؤس المتزايد فى الدول التى تعتنق الماركسية ، ودكتاتورية البروليتاريا لم توجد حتى الان فى الاتحاد السوفيتى والدول التى تسير فى اطاره وبالتـــالى فان الواقع فى الدول التى تعتنق الماركسية يتناقض معها ٠

● كان ماركس يرى أن نظريته ستطبق فى أوروبا الغربية ولم يتصور انها ستعتنق فى الاتحاد السوفيتى كأول دولة شيوعية العقيدة ، وهذا فى حد ذاته يعد خللا فى التطبيق رغم محاولات ملافاته ٠

● هاجم ماركس الدين بصفته ملحدا ونابعا من أسرة يهودية غيرت دينها الى البروتستنتية سعيا وراء المناصب وبالتالى جعل لنفسه دينا جديدا عماده « الانسان البروليتارى » ومثله فى ذلك مثل الجاهلى الذى خلق صنما يعبده ويتضرع اليه ٠ ولكن الانسان البروليتاري ـ هذا ـ عماد دين ماركس لم يوجد ولن يوجد بعد ٠

● يؤخذ على نظرية القيمة انها تعتمد أساسا على العمل علما بأن هناك اشياء ذات قيمة كبيرة لم يدخلها عمل أو بذل فيها عمل قليل كالاحجار الكريمة والينابيع الطبيعية ٠

● تفسر نظرية القيمة وفائضها قيمة السلعة وقت انتاجهـــا ولا تفسر ما يطرأ على قيمتها من تغيرات ، فهناك اشياء ترتفع قيمتها بدون عمـــل مثل ارتفاع اسعار الارض مثلا ٠

● تتعارض نظرية للقيمة مع الواقع ، فهناك اشياء تأخذ كميات متساوية من العمل ، ولكنها تختلف فى القيمة حسب نوعها وحجمها ، مثال ذلك الاسماك المختلفة الاثمان ٠

● تعتمد نظرية القيمة على تحليل العرض ، وتستبعد الطلب وبالتالى لا تأخذ فى الاعتبار اهمية المنفعة فى تفسير القيمة ٠

● فيما يتعلق بتناقص معدل الربح ، وقع ماركس فى تناقض فبينما تحدث عن ميل الربح للانخفاض ، افترض فى نفس الوقت ثبات الاجر الحقيقى وثبات الاجر الحقيقى مع ارتفاع الانتاجية يعنى ببساطة ارتفاع معدل الربح ٠

● يتنافى واقع النظام الراسمالى مع ما ذهبت اليه النظرية الماركسية فالزراعة لم تتمركز كما قال ماركس بل ان هناك تفتيت للملكية الزراعية فى دول الغرب كما أن الملكية الصناعية تتسع وتشمل أعدادا متزايدة من الأفراد بقيام الشركات المساهمة وغيرها ٠

● اثبت التطور التاريخى اتجاه معدل الربح الى الارتفاع لا الى الانخفاض ، بسبب ارتفع مستوى الانتاجية نظرا للتقدم التكنولوجى ، كما أن الاجور الحقيقية تتجه الى الارتفاع فى النظم الراسمالية مما أدى الى تحسن مستوى العمال ، وهذا يتناقض مع ما اكده ماركس بشان ثبات الاجور الحقيقية ، وبؤس العمال ٠

● ان قيام الثورة البلشفية فى الاتحاد السوفيتى يعد تكذيبا لنبوءة ماركس ، اذ كانت روسيا القيصرية دولة زراعية اقطاعية وتتميز بالتخلف وهذا لا يتمشى مع الظروف التى تعرض لها ماركس كشرط أساسى لتحقيق الثورة البروليتارية ، وكان على رأس هذه الثورة مجموعة من المثقفين الروس انحدرت غالبيتها من سلالة برجوازية وهذا تناذض آخر مع الماركسية ٠

● يعد النظام السوفيتى بعيدا عن الماركسية ، وان كان يتخذها كستار له ، والدولة فى أشد قوتها والطبقات قائمة والامتيازات لاعضاء الحزب الشيوعى ٠

النظرية السياسية الاسلامية العربية

- الخلافة
- البيعـــة
- الشروط الواجب توفرها في الخليفة
- عزل الخليفة
- مقومات النظرية السياسية الاسلامية
  الشورى ، العدل ،وا لمساواة ، الحرية ، البيعة
- الخلافة في عهد ابو بكر الصديق
  اجتماع السقيفة ، البيعة العامة

ان الاسلام نظام جامع محكم ، فجميع القـــوى أمر يختص بالله وحـــده لا يشاركه فيه احد وفى هذا يقول الله تعالى :

« يقولون لهل لنا من الأمر من شىء ، قل ان الأمر كله لله »

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الظالمون »

أى أن السيادة لله وحده والسلطة الحقيقية مختصة به ، وهناك من يرى أنه لا يصح اطلاق كلمة الجمهورية أو الديمقراطية على نظام الدولة الاسلامية بل الاصدق منها تعبيرا كلمة «الحيومة الالهية» او الثيوقراطية Theocracy والثيوقراطيه الاسلامية تختلف عن غيرها كالثيوقراطية الاوربية ، فأوربا لم تعرف منها الا قيام طبقة من القسس Priest class فتشرع للناس قانونا من عندها ·

فلم يكن عنـــد البابوات والقساوسة المسيحيين شىء من الشريعـــة الا مواعظ خلقية مأثورة من المسيح عليه السلام · أما الحكومة الالهية الاسلامية فلا تستبد بأمورها طبقة من المشايخ ، بل هى فى أيدى المسلمين ·

وغاية الدولة الاسلامية هو نظام العدالة الاجماعية الذى جاء فى كتاب الله · اذ يعطى لاهل الذمة ما لهم من حقوق وفى المقابل عليهم عصـــــمة فى النفس والمال والشرف ولكن ليس لهم دور فى الحكومة بأى حال من الاحوال ، لأن الدولة دولة حزب خاص ، والحاكم الحقيقى فى الاسلام هـــو الله ، وهناك من يرى أن الاسلام يستعمل لفظ الخلافة بدل لفظ السيادة Sovereignty ولما كانت السيادة لله ، فكل من قام بالحكم فى الأرض تحت الدستور الاسلامى فهو خليفة Vicegerent الحاكم الأعلى ·

وعد الله جميع المؤمنين بالاستخلاف أى أن الخلافة شعبية popular vicegerency لا يستند لهـــا فرد أو أسرة أو طبقـــة ، والكل مسئول أمام ربه ، من حيث كونه خليفة ، كما جاء فى الحـــديث : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

« **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليســـتخلفنكم فى الأرض كما أستخلف الذين من قبلهم** » أى أن المؤمنـــين كلهم خلفـــاء الله وبالتالى فالخلافة عمومية . popular vicegerency لا يستبد بها فرد أو أسرة أو طبقة بل كل مؤمن خليفة من الله ، وكل واحد منهم مسئول امام ربه من حيث كونه خليفة كما جاء فى الحديث .

« **كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته** » .. **كل افراد المجتمع سواسية ولا فضل لأحد على غيره الا لكفاءته الشخصية** .

قال الرسول (صلعم) :

« **ليس لأحد فضل على أحد الا بدين أو تقوى ، الناس كلهم بنوا آدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي ولا عجمي على عربي ولا أبيض عـــلى أسود ولا أسود على أبيض الا بالتقوى** » .

ولا تضيع فى الاسلام شخصية الفرد ، ولا يتعدى الفرد فى الاسلام حدوده بحيث يكون ضارا للجماعة . ومنزلة الامام أو الأمـــير أو الرئيس فى الدولة الاسلامية تأتى من أن جمهور المسلمين « الخلفاء » قد اختاروا أفضلهم وأتقاهم ، أما تسميته بالخليفة فليس معناه أن الخليفة وحده ، بل معنـــاه أن خـــلافة المسلمين العمومية أصبحت مرتكزة فى ذاته ، وهناك من يرى أن انتخـــاب الأمير يجب أن يتم على أساس الآية « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » ، والأمـــير ليس له فضل على جمهور المسلمين ، ويعزل اذا شاءت الأمة ، والأمير محتوم عليه المشاورة فى الامر .

وأصبح نظام الحكم فى أعقاب وفاة الرسول « صلعم » يسمى بالخلافة ،

وكان أول من عقدت له البيعة هو أبو بكر ، ولذلك سمى خليفة رسـول الله وهذا هو اللقب الوحيد الذى سمى به فى وثائق الدولة ومكاتباتها ، وقد قال ابن خلدون فى مقدمته : -

« الخلافة هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الاخروية والدنيوية الراجعة اليها ، اذ أن أحـوال الدنيا كلها ترجع عنـد الشرع الى اعتبارها بمصالح الأخرى ، فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدين » .

وتعتبر منزلة الخليفة كمنزلة الرسول «ص» من حيث الطاعة والواجب له على الناس لأنه يعتبر الحاكم الأول فى شئون الدين والدنيا .

أما البيعة هى « العهد على الطاعة » كما قال ابن خلدون .

- هى عقد سياسى بين جمهور الأمة وشخص مرشح للولاية ، وفى العقد يتعهد جمهور المسلمين بالطاعة للامام فى الحدود التى شرعها الله ، ويتعهد هو بأن يتفانى فى خدمة الاسلام والمسلمين .

- لما كان من المتعذر أخذ رأى كل المسلمين ، فتم اللجوء الى طريقة الانابة أو التمثيل ، أى ينوب عن الأمة فى اختيار الخليفة أو مبايعته عدة أفراد نائبين عن الأمة ، ويسمى البعض هؤلاء الأفراد « أهل العقد والحل » لانهم يقومون نيابة عن الأمة باختيار الخليفة أو مبايعته .

ونشأت الخلافة بعد وفاة الرسول «ص» حيث قامت مشكلة سياسية بين المسلمين فى المدينة حول اختيار خليفة لرسول الله ، ودار بين المهـاجرين والانصار فى سقيفة بنى ساعدة نقاش عنيف ، وكان الانصـار يرون أنهم أحق بالخلافة والحكم لمساهمتهم فى الاسلام وفضلهم فى الدفاع عنه .

وكان المهاجـرون يرون أنهم أول من آمن بالرسول «ص» وهم أوليـاءه وعشيرته ، وعندما رأى المهاجرون تصلب الانصار فى طلب الخلافة ألقى فيهم

الصديق خطبة مؤثرة اعترف فيها بفضلهم ، ثم بين لهم أن المهاجرين أحق بالخلافة وهم أول من آمن بالاسلام ، وتحملوا الاذى والشدائد فى سبيله ، واستمر النقاش بينهم الى أن وقف بشير بن سعد وقال « يا معشر الانصار انا والله لئن كنا أولى فضل فى جهاد المشركين وسابقة فى هذا الدين ما أردنا به الا رضا وطاعة نبينا «ص» والكدح لأنفسنا ، فما ينبغى لنا أن نستطيل على الناس بذلك ، الا أن محمد «ص» من قريش ، وقومه من قريش ... وهم أحق به وأولى » .

ثم بايع عمر بن الخطاب أبو بكر وتبعه أبو عبيدة ، ثم تقدمت الاوس فبايعته وتبعتها الخزرج فيما بعد ، ثم تمت البيعة العامة للخليفة ، ونهض الخليفة فأوضح أبو بكر أول خليفة للمسلمين بويع فى سقيفة بنى ساعدة ، أوضح سياسته فى بضع كلمات نقتطف منها ما يلى : ـ

« أيها الناس انى وليت عليكم ولست بخيركم ، ان احسنت فاعينونى ، وان اسأت فقومونى ، الصدق أمانة والكذب خيانة ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم » .

وهناك شروط أساسية لا بد من توفرها فى خليفة المسلمين ، نظرا للمكانة التى يشغلها ، وهى قيادة الناس ورئاسة الدولة ، وتلك الشروط التى وضعها العلماء على أساس الكفاءة والقدرة ، وهناك شروط بديهية لا بد من توفرها فى الخليفة الذى يقع عليه الاختيار وهذه الشروط هى : ـ

أولا ـ العدالة على شروطها الجامعة .

ثانيا ـ العلم المؤدى الى الاجتهاد فى النوازل والاحكام .

ثالثا ـ سلامة الحواس من السمع والبصر واللسان .

رابعا ـ سلامة الاعضاء .

خامسا ـ الرأى المؤدى الى صلاح الرعايا وتدبير مصالحهم .

سادسا ـ الشجاعة والنجدة المؤدية الى حماية المجتمع والجهاد ضد العدو .

سابعا - الذكورة .

لا يوجد خلاف بين علماء المسلمين فى اشتراط الذكورة بالنسبة لرئاسة الدولة ، واستندوا فى ذلك على حديث الرسول - ص - « ما افلح قوم ولوا أمرهم امرأة » .

من المعروف أن المرأة لا تصلح لأمور الحكم ، حيث أن منزلتها وطبيعتها تفرضان عليها شيء آخر وهى تربية الأولاد وتعليمهم ، وأنواع أخرى من العمل البشرى مثل التمريض ، وكذلك نجد المرأة تغلب عليها العاطفة .

ثامنا - الاسلام .

وهذا الشرط لا جدال فيه ، وهو من البديهيات ، وهو شرط فى القضاء بين المسلمين ، وشرط فيما يعتبر ولاية عامة .

تاسعا - الخبرة السياسية والادارية .

وهى أن تكون له خبرة عملية وقدرة شخصية على معالجة الشئون السياسية والادارية ، حيث أن الرسول «ص» كان يولى الصحابة مراعيا كفاءتهم وخبرتهم فيما يوليهم اياه من أمور الدولة ، فعين خالد بن الوليد قائدا لما فيه من الشجاعة وحسن الرأى والخبرة فى أمور القتال ، ولذلك لا يكفى بأن يكون رئيس الدولة عالما وتقيا ، بل لا بد له من الخبرة فى سياسة المجتمع وادارة الدولة .

ولا شك بأن كل تلك الشروط التى اشترطها الفقهاء فى الخليفة لم تكن عبثا ، وانما هى لصعوبة المهمة التى تقع على عاتق الخليفة ، حيث أنه مسئول عن كل كبيرة وصغيرة فى المجتمع الاسلامى ، فهو يمثل الأب بالنسبة للأسرة ، حيث أنه يتفقد أحوالها ويسير مصالحها ويرعى أبنائها ، وفى هذا يقول الرسول - ص - « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

وقد حدد القرآن الكريم سلطات الخليفة المسلم ، يقول الله سبحانه وتعالى يخاطب الرسول - ص - « **فذكر انما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر** » .

ويقول الله تعالى : « **وما أنت عليهم بجبار** » .

وقد أجمل الموارديّ واجبات الخليفة المسلم فيما يلي : -

أولا - حفظ الدين على أصوله المستقرة وما أجمع عليه سلف الأمة ، واذا كان هناك مخالف عليه أن يوضح له الحجة ويبين له الصواب ، وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود ، فحفظ الدين وتطبيق مبادئه وأحكامه واجب على الخليفة ، فاذا رأى الخليفة ما يخالف ذلك أو من يتعدى حدود الشريعة ، فيجب عليه أن ينصحه بالمعروف ويأخذه بالتي هي أحسن وان أبى فعليه تطبيق حدود الله ورسوله .

ثانيا - تنفيذ الاحكام بين المتشاجرين وقطع الخصام بين المتنازعين ، وهذه الفقرة تمثل السلطة القضائية ، حيث أن رئيس الدولة هو الذى يعين القاضى ، وعندما يعين رئيس الدولة القاضى يجب أن لا يتدخل فى حكمه حينما يحكم الا عندما يخالف حكمه الشريعة ، وهنا يعتبر رئيس الدولة هو القاضى الأعلى .

ثالثا - حماية الأمن ليتصرف الناس فى المعايش وينتشروا فى الاسفار ، ونفهم من هذا الواجب هو تحقيق الأمن والاستقرار بحيث لا يكون آفى البلاد سلطة أو قوة سوى سلطة الدولة .

رابعا - اقامة الحدود لتصان محارم الله ، واقامة الحقوق ، أى تنفيذ العقوبات ضد مرتكبى الجرائم العامة والخاصة لردع كل من تسول له نفسه بانتهاك حرمة من حرمات المسلمين ليكون عبرة لغيره .

خامسا - تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة لكى لا يظفر الأعداء بقوة ينتهكون فيها محرما أو يسفكون دما ، وهذه من أهم واقدس

الواجبات هى تحصين البلاد ضد كل اعتداء أو غزو خارجى ، فلذلك على الخليفة المسلم أن يعد الجيوش فيدربها لصد أى عدوان على أرض المسلمين . ولذلك نجد أن الاسلام اشترط فى الخليفة الكفاية والقدرة والشجاعة ، وان لم تتوفر فيه هذه الصفات وجب عزله ، حيث يجب أن يكون هو على رأس المجاهدين ضد الأعداء ولا يكتفى باعطاء الاوامر ، ولا يجوز أن يخرج نفسه من المسئولية أو يعطيها لغيره .

سادسا - جهاد من عاد الاسلام بعد الدعوة حتى يسلم أو يدخل فى الذمة ، ليقام بحق الله تعالى من اظهار على الدين كله .

والجهاد فى سبيل الله واجب على المسلمين لنشر الدعوة الاسلامية ، فاذا دعاهم الامام الى الاسلام فعندئذ اما أن يدخلوا الاسلام ويكون لهم من الحقوق ما للمسلمين ، أو أن يكونوا ذميين فيدفعوا الجزية مقابل الدفاع عنهم وعن أرواحهم وممتلكاتهم وأعراضهم ، ولا يجوز لأحد أن يعتدى على ذمى أو من دخل فى حماية المسلمين ، فاذا حدث اعتداء ضدهم فكأنما يعد اعتداء على المسلمين أنفسهم ، ولذلك يجب صد العدوان عنهم وعن ممتلكاتهم .

سابعا - جباية الفى والصدقات على ما أوجبه الشرع نصا واجتهادا من غير خوف ولا عسف .

وهنا يجب على الخليفة جمع أموال الصدقات من الناس ولا يجوز له أن يتساهل فى جباية الصدقات لأنها حقوق لأصحابها من الفقراء والمساكين ، ويجب على الخليفة جمع أموال الفى من الخراج والجزية وهنا لا بد من أن نفرق بين الجزية والخراج :

فالجزية : هى المال الذى يؤخذ من أهل الذمة على رؤوسهم .

أما الخراج : فهو المال الذى يؤخذ من الاراضى التى قسمها المسلمون وأبقوها بيد أصحابها من الذميين على أن يدفعوا عنها خراجا معلوما كل عام ، ولا يجوز للامام أن يتعسف فى جباية الاموال أو يجور على أهل الذمة بأن يفرض عليهم مقدارا كبيرا من الاموال

ثامنا - تقدير العطايا وما يستحق فى بيت المال من غير سرف ولا تقتير فى وقت لا تقديم فيه ولا تأخير . ومن واجبات الخليفة أن يوزع أموال بيت المال على المستحقين من المسلمين ، وهذا مشروط بعدم الاسراف أو التقتير .

تاسعا - استكفاء الامناء وتقليد النصحاء ، وتوليه الاعوان الامانة ، ويجب على الخليفة أن يختار مساعديه وأعوانه من أهل الكفاءة والقدرة . فيجب على كل من ولى شيئا من أمور المسلمين أو غيرهم أن يعتبر الولاية والاستعانة بالاعوان مسئولية وعليه ألا يسلم الا لمن يقدر على حملها ، فقد قال النبى (ص) لأبى ذر : « انها أمانة وانها يوم القيامة خزى وندامة الا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه منها » . وقال (ص) لأصحابه : « اذا ضيعت الأمانة فانتظروا الساعة .. قيل وما اضاعتها يا رسول الله . قال : اذا سند الأمر لغير أهله فانتظروا الساعة » .

وقال أيضا - ص - « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » ، فالامام الذى هو على الناس هو راع وهو مسئول عن رعيته،والمرأة فى بيت زوجها راع وهى مسئولة عن رعيتها ، والولد راع فى مال أبيه وهو مسئول عن رعيته ، والعبد راع فى مال سيده وهو مسئول عن رعيته .. ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

عاشرا - أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور وتصفح الاحوال .

وهنا يعتبر الخليفة مسئول عن الدولة و لايجوز أن يفـــوض أمرها لغيره تشاغلا عنها بلذة أو غيرها ، فان وجد نفسه غير قادر على ذلك وجب أن يتخلى عنها لمن هو أكفأ منه ، وهذا لا ينافي أن يعطى كل شخص بعينه المسئولية مثلا الوزراء عندما يعينهم يجب عليه رقابتهم ومساءلتهم ، تلك كانت واجبات الخليفة فى الدولة الاسلامية ، أما حقوقه فهى : -

الطاعة والامتثال لأمره من قبل الرعية ٠

قال الله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله والرسول وأولى الأمر منكم** » فالله سبحانه وتعالى أمرنا بطاعته والامتثال لأمر الرسول «ص» ، وبعد الرســـول يجب طاعة أولى الأمر ما لم يأمر بمعصية فان أمر بمعصية وجب مخالفته ٠ وقال الرسول «ص» : من خلع يدا من طاعة لقى الله ولا حجة له ٠٠ ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية ٠

وان رفضت جماعة نصرة الخليفة والامتثال لأوامره ، عوملت معاملة البغاة والبغاة يجب محاربتهم لينزعوا عن المباينة ويرجعوا الى الطاعة ٠

والبغاة هم الخارجون على طاعة الامام ، ويشترط لقتال البغاة ألا يكون القصد قتلهم ، بل القصد هو ردعهم عن بغيهم واعادتهم للطاعة ، فاذا هـــربوا لا يجوز له اللحاق بهم ٠ ولا يجوز له أن يجهز على الجرحى منهم ولا يقتـــل الأسرى ولا يقيم أموالهم ولا يستعين بالمشركين على قتالهم ، لأن بلادهـــم هى دار الســـلام ٠

فيما سبق ، تعرضت لشروط الخليفة ، أو الصفات التى يجب أن تكون فى الخليفة وعند مخالفة هـــذه الشروط يعزل الخليفة ٠ وقد ذكر الماوردى فى كتابه الاحكام السلطانية أنه اذا قام الامام بمهمته وجب له الطاعة والنصرة والذى يتغير به حالة عن الخلافة شيئان : -

١ - جرح فى عدالته .

٢ - نقص فى بدنه .

ويمكننا أن نجمل الأسباب التى لأجلها يعزل الخليفة : -

(أ) الجنـــــون : -

عندما يصاب الخليفة بالجنون فانه يمنع من عقد الخلافة وفى هذه الحالة يجب عزل الخليفة وتولية من هو أصلح منه .

(ب) ذهاب البصر : -

استنادا لما ذكره الفقهاء ، بأن الاعمى لا يجوز أن يكون قاضيا ولا تعبـــل شهادته ، فمن باب أولى ألا يعقد له الخلافة .

(جـ) الصمم والخرس : -

اختلف فيها ، منهم من قال : يخرج بهما منها كما يخرج بذهاب البصر ، لتأثيرها فى التدبير والحلل ، وقال آخرون لا يخرج بهـــا من الامامة لقيـــام الاشارة مكانها

(د) فقد اليدين والرجلين : -

ولا يجوز له أن يتولى الامامة ابتداء ، كما لا يجوز له أن يستمر فيها ، لان ذلك يؤدى الى عجزه عن الحركة التى لا يستغنى عنها الخليفة .

(هـ) العجـــــز : -

وهو أن يستولى على الخليفة من أعوانه من يستبد بتنفيذ الأمور ، فان لم يظاهروا بمعصية ولم يجاهروا بها فان هذا لا يؤثر على الخليفة . والخليفـة الذي يتولى أموره غيره غير كفء للخلافة .

(و) القهـــر :-

وهو أن يصير الخليفة فى يد عدو قاهر لا يقدر على الخلاص منه ، وهذا يمنع من عقد الخلافة ابتداء ، وان لم يجدوا أملا فى انقاذ خليفتهم تشاور أهل الحل والعقد وبايعوا من هو كفء .

كيف يعزل الخليفة :-

ذكرنا فيما مضى بأن الأسباب التى تؤدى إلى العزل هى اما جـرح فى عدالة الخليفة ، أو عدم الكفاءة من الناحية الجسمية ، واذا أصبح الخليفـة فاسق جائر يرتكب المظالم والمحرمات فقد أجمع العلماء على اشهار السيف فى وجهه ووجوب خلعه ، ووضع من هو أكفأ منه وأصلح منه . وقـد أقر الرأي المعتزلة والخوارج والزيدية ورأوا أن ذلك واجب ، وتعتبر طاعة الامام الجائر غير لازمة ، وعلى كل فرد أن يعمل للخلاص منه .

وقد قال الخوارج بوجوب عزل الخليفة الجائر أو قتله لازالة الظلم

وقال الماوردى فى كتابه الاحكام السلطانية : « الامامة موضوعة لخلافة النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا وعقدها لمن يقوم بهـا فى الأمة واجب بالاجمـاع » .

وقد اقترنت كلمة امام بالصلاة ، حيث اكتسبت معنى خاصا وصار هـذا المعنى أكثر شهرة والمعروف به ، ثم اتسع هـذا المفهوم حتى شمل العبـادة الدنيوية أو بالمعنى الحديث القيادة السياسية .

وقد عرف الرازى الامام بأنه « كل شخص يقتدى به فى الدين » .

وقد يطلق لفظ امام على العالم مثلا أبو حنيفة ، يمكن أن يقـال له امام الفقه ، والبخارى امام التوحيد ، والامامة قسمها بعض العلماء الى قسمين : إمامة كبرى ، وامامة صغرى .

فالامامة الكبرى زعامة شاملة فى أمور الدين والدنيا . أما الامامة الصغرى فهى شاملة فقط للصلاة .

الجـــاحظ : ـ

أحاط بالثقافة الفارسية ، غير أنه يؤكد على قيم وتقاليد كل بيئة ، ويؤكد على ضرورة استناد حكومة الدولة الى المبادىء الخلقية ، ومن أولى شروط نجاح أى رئيس هو أن يكون على جانب من الحياد والتواضع والرحمة .

يصنف الرئاسة الى الرسول والنبى والامام : ـ

- الرسول : أعلى هذه المراتب لأنه يجمع بين النبوة والامامة .
- النبى : له صفة الامامة وليس له صفة الرسول .
- الامام : ليس له هذه الصفة أو تلك .

ابن جمـــاعة : ـ

يرى ضرورة الامامة للمجتمع الاسلامى ، وان الله يؤيد الامام الذى يرعى أمور أربعة رئيسية

١ ـ اقامة الصلاة .

٢ ـ ايتاء الزكاة .

٣ ـ الأمر بما أمر الله .

٤ ـ النهى بما نهى عنه .

ومن واجبات الامام الدفاع عن الدين ، ومعاقبة المخالفين لأحكامه وتعريض من أسيىء له ، واقامة الحق والعدل .

ويأتى التخليفة بالانتخاب . واذا لم تتوفر شروط الانتخاب فان الطـــريق الشرعى الثانى هو القوة ، ويقر شروط الموازدى فى الامام ويضيف الى ذلك أن يكون المرشح من الذكور وأن تكون عقيدته الاسلام . وأن يكون حرا ويختلف

ابن جماعة عن غيره فى أنه يضيف ترشيح الامام الحاكم لخلفه كجزء من عملية الانتخاب ، وأن الترشيح قد يتم عن طريق القوة ٠

٢ - ان الانتخاب لكى يكون شرعيا لا يجوز أن يقف عند بيعة أهل الحل والعقد ، لأنه يرى أن فى البيعـــة العامة الطـــاعة للامام التى هى جـــزء من طاعة الله ٠

المـــــاوردى : -

الدولة الاسلامية تقوم على وحدة الدين والسياسة ، قانون الدولة الأعلى هو القانون الاسلامى الذى يخضع له الحاكم والمحكوم ، وأهم ما يدعم الحكام هو رضاء الأمة واجماع الآراء ٠

والخلافة تدافع عن العقيدة الاسلامية ، وترعى شئون المسلمين الدنيوية ، والخلافة واجبة ، والحكومة التى تقوم على نظرية الخلافة هى حكومة تقـــوم على قانون الهى ، وبالتالى فهى أعلى في شأنها من الحكومات القائمة عـــلى العقل الانساني ، ويصر الماوردى على انتخاب الخليفة ٠

ويرى أن الخلافة واجبة على المسلمين ولولاها لكان النـــاس فوضى بدون أعمال ، ونجد أن آراءه لا تختلف عن آراء ابن خلدون وابن تيمية ٠

ابن تيميـــــة : -

الشريعة هى أعلى مصدر للسلطة ، ومع أهمية السلطة السياسية وضرورة طاعتها ، الا أن الطاعة لا يجب أن تتم الا اذا انسجمت مع متطلبـــات أوامر الشريعـــة ٠

ولا يصر على توفر الشروط المثالية للامام ، ولا يتقيد أيضا بالانتخـــاب ، فالخالق هو الذى يعين الحاكم عن طريق اجماع أصوات الأمة التى لا تخطىء ، أى ان مركز الجاذبية انتقل من الخليفة الى الأمة ٠

ويهتم بأن يكون للدولة حكومة تقوم على العدل ، مع اهتمام الناس بالواجبات الدينية ، والدين عامل من عوامل اجلال السعادة فى المجتمع ·

حارب البدع ، وتفتح على الفكر السياسى الاغريقى الهيلانى ، شأنه فى ذلك شأن ناصر الدين · ويقول : « ستون سنة فى ظل امام جائر أصلح من ليلة بلا سلطان » فالخلافة فى رأيه واجبة شرعا والمسلمون مأمورون بأن يعيشوا فى ظل امارة أو حكومة ، والا فقد تعرضوا للذم والعقاب ·

فالخلافة عنده واجبة ولا يستقيم أمر المسلمين الا بها ·

ويستمر ابن تيمية فيقول : -

الخلق عباد الله ، والولاة نواب الله على عباده ، وهم وكلاء العباد ، وعلى نفوسهم والوكالة نيابة الحاكم عن الله ليست نيابة حقيقية دائما هى على سبيل التمثيل أيا كان من الحكمة الذى يمثل السلطة العليا القائمة على الناس وليس فوقه الا الله ، وتجرى أمور العباد على الصورة التى يراها تصوير المجتمع المؤمن ·

أثر النيابة : -

قد توقع هذه النيابة فى الملك أحاسيس طيبة ، فيذكر عظمة الخالق سبحانه وتعالى ، فيشعر بالمسئولية التى حملها الله اياها ، فيخاف الله من أن ينحرف أو يسقط مما يدعوه الى العدل والانصاف ، أى أن النيابة التى أعطاها الله سبحانه وتعالى فى الخليفة تكون نيابة عادلة ، وقد تكون هذه النيابة أداة بطش واستغلال ، فيكون الحاكم هنا متسلط بلا عقل أو حكمة

احساس المحكومين تجاه الحاكم : -

الولاء والتسليم للحاكم . وتقبل ما يأتى به من خير او شر فى حمد ورضى . لأن تلك مشيئة الله ، وذلك الحاكم هو نائبه الذى يبرم مشيئته وينفذ قضائه .

وتلك عداوة للانسانية وجورا على وجوده باخضاعه للسلطان المطلق السلطة عليه من السماء ولم يجعل الله سبحانه وتعالى لانسان غير الأنبياء سلطان على الناس من جهة غير وجهتهم ، حيث يستمد الحاكم سلطته منهم وليست من السماء ٠

نرى أن آراء ابن تيمية تبالغ الى حد كبير فى الخضوع للسلطان والرضوخ لسلطته ، ولنا أسوة حسنة فى أبو بكر حيث قال : « أطيعونى ما أطعت الله فيكم وان عصيته فلا طاعة لى عليكم » ٠

ابن طباطبا :

المعروف بابن طفطفة أو ابن الطقطقى

خير انواع الحكم الذى يجمع القوة والأخلاق ويهتم بعلاقة الخلافة بالتقاليد الاسلامية ويحكم على نجاح الدولة بمقدار ما تقوم عليه من مبادىء وسلوك خلقى لمراعاة القواعد الخلقية المطلوبة من الراعى والرعية . ومن أولى مسئوليات الراعى خلق مواطنين صالحين ٠

الفارابى :

اذا كان الكندى هو أول من طرق الفلسفة من ابناء الحضارة العربية الاسلامية ، الا ان الفارابى أول من أرسى قواعدها ، وتمثل هدف الفارابى فى تحقيق السعادة ، ولا تتحقق السعادة الا اذا عاش الافراد ضمن جماعة ، وهنا يتعاقد الافراد لاقامة مجتمع سياسى هو الدولة وهذا التعاقد سياسى يتنازل فيه الافراد عن بعض حقوقهم فى سبيل الوصول الى السعادة ، والسعادة لا تتحقق الا فى الدولة الفاضلة،فأهل المدينة الفاضلة أو الدولة الفاضلة يختلفون عن غيرهم وعن أهل المدينة الجاهلة أو الدولة الجاهلة ، فحياتهم تعمل كالكيان الحى ويتولى الرئيس المسئولية الأعلى ووظيفته التوجيه والتربية نحو الفضيلة

ونحو السعادة ، ومركز الرئيس كمركز القلب بالنسبة للكيان الحى ، ويتميز أهل المدينة الفاضلة بالعلم والعمل والفضيلة ٠

ابن ســـينا :

أتت شهرته كطبيب ، الا انه فيلسوف سياسى فى نفس الوقت ونظـر الى المجتمع من زاويتين :

(١) سعادة الفرد ٠

(٢) سعادة المجتمع

سعادة الفرد لا تكتمل الا مع المجموع ، ونجاح المجتمع الســـياسى أو الدولة يتوقف على اصلاحها ، وبما أن الدولة تتكون من راعى ورعيـــة فان صلاحها يتم بصلاح الراعى والرعية والصلاح الحقيقى يبدأ بصلاح النفس وجاءت الرسالة الاسلامية لتقيم دولة فاضلة والعبرة هى تطبيق احكامها وتعاليمهـا على أفضل وجه ٠

أول مقومات الدولة الفاضلة هو نوعية قيادتها التى هى قيادة نبوية ٠ ويتمثل دور رئيس الدولة الذى يخلف الرسول(ص)وهو الخليفة أو الامام فى الحفاظ على كيان الدولة ونموها وازدهارها ويؤكد على قيمة واهمية المواطن فى المجتمع السياسى والاسلامى ٠

الغزالى :

الانسان خلق بطريقة لا يمكن فيها من العيش دون تعاونه مع الاخرين ، والتعاون ادى الى احتراف الحرف وتعاون اصحاب الحرب مع بعضهم البعض مما أد ىالى قيام الفنون والصناعات ٠ وكل اصحاب حـــرفة يدافعـون عن حرفتهم ، مع هذا التطور تظهر الدولة ٠ وهذا يجعل الغزالى من أوائل الذين بنوا نظرية قيام الدولة على أساس التطور ٠

والوصول الى السعادة الحقيقية هو ذلك الطريق الذى يربط بين سعادة الدنيا وسعادة الاخرة · والقانون يحمى المجتمع السياسى · وبين أهمية قانون الشريعة الاسلامى بالنسبة للدولة ·

ابن رشد :

الانسان حيوان اجتماعى ولا يجد سعادته الا بتعاونه مع الاخرين · التعاون يؤدى الى التجمع الانسانى والاخير لابد أن يأخذ صورة من صور أنظمة الحكم ، أفضل نظام حكم هو نظام الحكم الجمهورى ، والحكم العربى فى صدر الاسلام ينطبق عليه الحكم الجمهورى ، اذ انه يستند الى الاختيار وهذا هو الحكم الجمهورى ·

الدولة الاسلامية هى التى تحقق امن الأفراد وسعادتهم ، وهذا لا يتحقد الا اذا قام على قانون يأتى به قائد ورسول موحى ، وهذا القانون يتمثل فى الشريعة الاسلامية ·

ابن خلدون :

تقوم نظريته فى نشأة المجتمع للسياسى « الدولة » على مبادىء متعددة منها أن اجتماع الانسان أمر ضرورى ، لتأمين الحاجة الى الغذاء والدفاع ، والاجتماع يؤدى الى التنازع والاخير سببه الطمع والظلم والعدوان المتأصل فى الانسان والذى يطلق عليه بن خلدون الطبائع الحيوانية ·

اذا ترك التنازع فتزداد المنازعات وتسفك الدماء ·

الدولة منظمة اجتماعية ، وتمر الدولة بعدة اطوار ·

(١) طور البداوة القائم على الحياة والقيم البدوية فى المجتمع ويتميز مواطنوا واعضاء دولة البداوة بالقوة والشجاعة والروح المعنوية العالية ·

والعصبية كقوة للدولة عند بن خلدون لا يجوز أن تقرن بالتعصب ·

قال بن خلدون أن الشروط التى يتعين توفرها فى الامام هى العلم ، العدالة ، الكفاية ، سلامة الحواس والاعضاء ·

قال شرط مختلف هو « القرشية »

يقول بن خلدون أن اشتراط القرشيه ليس مقصـــودا به أهل قريش بالذات ولكن يقصد به العصبية أى يجب ان يكون الامام من قوم أولى عصبية قوية ومن الادلة التى يسوقها القائلون مع بن خلدون قول النبى « اسـتمعوا واطيعوا وان ولى عليكم عبد حبشى » وأن كان كثير من العلماء يرى أن هـذا الحديث قصد به التمثيل والمجاز وليس حقيقة ٠

وفى العصر الاموى بدأ التدخل فى ترشيح الخلفاء لأبنائهم ، الأمر الذى حول النظام الى نظام شبيه بالنظم الوراثية ٠

التطورات الجديدة أدت الى أضفاء الجاه والسلطان على منصب الخلافة مما جعل النظام يقترب اكثر من الدولة الفارسية والدولة البيزنطية ٠

تذهب نظريات الشيعة الى أن الامامة يجب أن يراعى فيها درجة القرابة من أسرة النبى ٠

والشيعة : تشيعوا لعلى بن ابن طالب ٠

والامام يحتل مرتبة هامة تصل الى حد أنه معصوم من الخطأ ٠

والخوارج خرجوا على على لانه وافق على ايقاف القتـال فى معـركة صفين ورأوا أن الفصـل فى الخلافة لا يصح أن يوكل الى البشر ، بل ينبغى الاحتكام فيه الى الحرب والكفاح وسفك الدماء ولا حكم الا لله ٠

وفسروا الحرب بين على ومعاوية على أنها فى سبيل مصـالح دنيوية ولذلك انكروا حق على ومعاوية فى الخلافة ٠

ورأوا أن الخلافة لا تقتصر على قوم دون قوم وان اقتصـار الخلافة على قبيلة قريش هو مخالفة لاحكام الشرع ، والخلافة مفتوحة لكل المسـلمين ، والاختيار قائم على الاهلية ولو توفر ذلك فى عبد حبشى مسلم ٠

ووفق الخوارج بين الاحكام الشرعية والمثل الخلقية فالاعمال يجب أن تتم عن المثل الاعلى فى الورع وخشية الله

أما مذهب المرجئة . فهو محايد ازاء الحكم ، اذ انه ليس مع الدولة أو ضدها ، ولا يخوض هذا المذهب فى المسائل السياسية فأنصار عثمان ، وانصار على وانصار معاوية كل هؤلاء فى نظرهم من المؤمنين وانهم مصدقين بالله ورسله .

أما أهل السنة فينظرون الى الخليفة كانسان ككل الناس ولد كما يولد الناس وتعلم أو جهل كما يتعلم الناس وهو منفذ للقانون الاسلامى والرسالة هى الهدف .

الشـــورى :

تقوم النظرية السياسية الاسلامية على أساس الشورى ، والعدل والمساواة والحرية ، والبيعة .

ويعد مبدأ الشورى أهم المبادىء الدستورية الاسلامية فتجمع المصادر الاسلامية التى التى عنيت ببحث المسائل المتعلقة بنظام الحكم فى الدولة الاسلامية على أهمية الشورى ، فطبيعة نظام الحكم الذى يقره الاسلام أن يكون نظاما شوريا ، فنرى الشورى هنا كأساس لفن الحكم تواجه الحاكم ، وقد استقر فى منصبه وأخذ يتهيأ للحكم «فتقول له كيف يحكم وكيف يتصرف» وكيف يقود (١) .

ادلة وجوب الشورى :

يستدل على وجوب الشورى بالقرآن والسنة ، ففى القرآن الكريم وردت آيتان صريحتان ذكرت فيهما الشورى نزلت الأولى بعد غزوة أحد حين نزل

---

(١) مصطفى أبو زيد فهمى « فن الحكم فى الاسلام » — القاهرة : المكتب المصرى الحديث — بدون تاريخ نشر . ص ٢٢٣ .

نزل الرسول صلى الله عليه وسلم لمشورة أصحابه وهم الأكثرية ، وكان رأيهم الخروج لملاقاة الكفار خارج المدينة ، ولأمر يريده الله لم ينتصر المسلمون ، فنزلت الآية الكريمة تأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأخذ المشورة ، وهذا تأكيد على أهمية الشورى ٠

وقال تعالى : « **فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر ، فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين** » ٠

ويتبين من الاحداث التى وقعت عقب غزوة أحد أن رأى الرسول صلى الله عليه وسلم كان هو الأصوب والأصح ، ومع ذلك امر بأن يستغفر لهم وبأن يشاورهم فى كل ما يحتاج الى مشاورة ، وهذه الآية الكريمة وبلا شك « نص قاطع لا يدع مجال للشك فى أنه مبدأ أساسى من مبادىء النظام السياسى الاسلامى » (١) ٠

أما الآية الثانية ، فهى قوله تعالى فى ضرورة الشورى : « **والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون** » ٠٠ ففى هذه الآية يمدح الله عز وجل فاعلوا الشورى ، فمن خصائص الاسلام التى يجب أن يتحلى بها المؤمن ، سواء يشكلون جماعة لم تقم لها دولة بعد ، كما فى مكة ٠

أو كانوا يشكلون دولة قائمة بالفعل كما هو حال المسلمين فى المدينة ٠

أما الشورى فى السنة النبوية فانها زاخرة بالأمثلة العملية كاستشارة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، لأصحابه ، حتى قال أبو هريرة ،

---

(١) محمد سليم العوا « فى النظام السياسى للدولة الاسلامية » (القاهرة - المكتب المصرى الحديث ، ١٩٨٣) ص ١٩٢ ٠

رضى الله عنه : « ما رأيت أحدا أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم » .

ومن ذلك استشارة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، لأصحابه فى الخروج يوم بدر ، وفى المنزل الذى ينزله عندها ، ونزوله صلى الله عليه وسلم عند رأى الحباب بن منذر ، وكذلك حدث يوم أحد ، حيث كان رأى الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، التحصن فى المدينة المنورة ، يساندة فى ذلك الرأى كبار الصحابة ، ولكنه نزل عند رأى الأغلبية وهم الشباب الذين رأوا فاعلية الخروج لملاقاة الكفار ، يساندهم فى ذلك رجالا لم يشهدوا بدر ، ويطلبون من الله عز وجل أن يرزقهم احدى الحسنيين : الشهادة أو النصر . وكان هؤلاء جميعا كما يقول أحدهم : « لا يحبون أن ترجع قريش الى قومها فيقولون خسرنا محمد فى صياصي يثرب وآطامها ، فتكون هذه مجرئة لقريش وها هم هؤلاء قد وطئوا سعفنا » (١) .

وان قريشا قد مكثت حولا تجمع الجموع وتستجلى العرب من البوادى ، ثم جاءونا قد قادوا الخيل وامتطوا الأبل فيحسبوننا فى بيوتنا ، وقد أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أن ينزل على الأغلبية ، وعقد عزمه على الخروج لملاقاة المشركين خارج المدينة .

وبينما كان النبى صلى الله عليه وسلم فى بيته يلبس درعه ويتقلد سيفه كان المسلمون فى جدل ونقاش مستمر ، فندم الذين قالوا بأفضلية الخروج لملاقاة الكفار لأنهم استكرهوه على الخروج وهو له كاره ، فلما خرج النبى صلى الله عليه وسلم متقلدا سيفه ، لابسا درعه ، أسرعوا اليه معتذرين وقالوا له ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما بدا لك والأمر الى الله ثم اليك ، فابى أن يعدل عن ذلك على الرغم من أنه مع الرأى الآخر وقال لهم : « دعوتكم الى هذا

---

(١) مصطفى أبو زيد فهمى - مرجع سابق - ص ٢٥٨ .

الحديث فأبيتم ، وما ينبغي لنبي اذا لبس لامته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه » .

ومن الأمثلة على استشارة الرسول صلى الله عليه وسلم أيضا لأصحابه قوله لابى بكر وعمر : لو اجتمعتما ما عصيتكما . وكذلك نزوله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق عند رأى سلمان الفارسي حين أشار عليه بحفر خندق حول المدينة ليكون منيعا من دخول الأحزاب اليها .

ولقد كان أبو بكر الصديق اذا ورد عليه حكم « نظر فى كتاب الله تعالى فان وجد فيه ما يقضى به قضى به ، وان لم يجد فى كتاب الله نظر فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فان وجد ما يقضى به قضى به ، فان أعياه ذلك ، سأل الناس : « هل علمتم أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قضى فيه بقضاء » (١) .

فان لم يجد سنة سنها النبى صلى الله عليه وسلم جمع رؤساء الناس فاستشارهم ، فان اجتمع رأيهم على شيء قضى به .

ولقد أتبع عمر بن الخطاب نهج الرسول صلى الله عليه وسلم وخليفته أبو بكر الصديق ، فى الاستشارة فكان كثيرا ما يطلب المشورة من أصحابه مثل عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب ، كرم الله وجهه ، ويذكر عن عمر بن الخطاب أنه كان يقول : « لا خير فى أمر أبرم من غير شورى » (٢) .

نطاق الشورى : -

تشير السوابق الدستورية والسياسية فى عهد الرسول ، صلى الله عليه

---

(١) مصطفى أبو زيد فهمى ، مرجع سابق ، ص ٢٥٨ .
(٢) محمد سليم العوا ، مرجع سابق ، ص ٢٥٨ .

وسلم : « بأنه شاور في أمور الدين والدنيا » (١) .. فلقد شاور الصحابة رضوان الله عليهم في أمر السيدة عائشة رضي الله عنها في قصة الأفك قبل أن ينزل جبريل من السماء بآيات من الله عز وجل تبين براءتها ، وعلى الرغم من أنه كان عليه الصلاة والسلام أكثر الناس عقلا وذكاء ، وكان جبريل وصي الله الكريم سفير السماء الى الأرض يمده بارشادات من الله سبحانه وتعالى ، فما كان في حاجة الى رأى أحد ، فما أمر الله نبيه بالمشاورة لحاجة منه لرأيهم ، وانما أراد أن يعلمهم ما في المشاورة من فضل ولتقتدى به الأمة الاسلامية من بعده .

فنطاق الشورى المسائل التي تعترض والتي لا نجد لها في الكتاب الكريم حكما ، ولا نجد لها في السنة النبوية سابقة ، والشورى من العموم والاطلاق ما يجعلها تشمل كل شئون الجماعة المسلمة في كل نواحي حياتها ، فاذا أخذنا بهذا الاطلاق والعموم فاننا نستطيع القول بأن جميع شئون الأمة الاسلامية يجب أن تكون محلا للشورى ولكن هناك قيدان أمام هذا القول : -

اولهما - أن لا تكون الشورى في مسألة ورد بها نص في القرآن أو السنة ، الا اذا كانت الشورى تفسير النص أو تنفيذه .

ثانيهما - هو أنه لا يجوز أن تكون نتيجة المشورة مخالفة لنص من النصوص التشريعية الواردة في القران او السنه الكريمة ، فهذه المشورة المخالفة تمنع الأخذ بالرأى الذى انتهت اليه المشورة .

والواقع أن عدم التحديد وتعيين الموضوعات التي تفرض للشورى تحديدا قاطعا هو الأليق بمنهج الإسلام في التشريع الذى يكتفى بتقرير الكليات والقواعد العامة ويترك الجزئيات لاجتهاد المسلمين .

---

(١) مصطفى أبو زيد فهمى ، مرجع سابق ، ص ٢٤٤ .

ولما كانت الشورى مقررة بنصوص القرآن والسنة ، وكان اتباع هـذه النصوص واجبا على الحكام ، فانه لا بد لنا أن نبحث مدى الزام الرأى الذى تنتهى اليه الشورى : -

فى هذه المسألة نجد هناك رأيان متعارضان أحدهما يقول أصحابه : ان الشورى ملزمة للحاكم بحيث اذا استقر رأى أهلها ، أو غالبيتهم على شىء وجب عليه اتباعه » (١) .

أما الرأى الثانى فيرى أصحابه ان الحاكم ليس مجبرا أن يفعل ما انتهت اليه الأكثرية من المستشارين ، وانما يكفى أن يشاورهم ثم يأخذ بما يراه مناسبا فينفذه .. ويستدل أصحاب الرأى القائل بأن الحاكم ليس مجبرا بالأخذ بمشورة الأغلبية بقوله تعالى : « **فاذا عزمت فتوكل على الله** » .

كما يستدلون بموقف الرسول صلى الله عليه وسلم فى قضية صلح الحديبية ، حيث أنه أمضاه على الرغم من معارضة الكثير من الصحابة وموقف أبى بكر الصديق من انفاذ جيش أسامة رغم معارضة بقية الصحابة لرأيه ، وكذلك موقفه من حروب الردة ، حيث رأى وجوب مقاتلة المرتدين .

الشروط التى يجب أن تتوافر فى المستشارين : -

الشرط الأول : -

أن يكون كل منهم من أفضل الناس فى تقديم المشورة الصادقة والرأى الصحيح بحكم علمه وخبرته وتجربته ، فلا فائدة من استشارة الجاهل ، أو الشخص ذو الخبرة الضئيلة أو التجربة المحدودة .

---

(١) سعيد حوى ، فصول فى الأمرة والأمر : دار السلام ، ١٩٨٣ ، ص ١٢٤ .

ولذلك فان عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، كان يستشير النساء فيما تخصصت النساء فيه ، بل وكان فى بعض الأحيان يستشير الشباب ٠

الشرط الثانى : -

أن يكون صادق الايمان بالله ، فالمؤمن بربه لا يجبن لأنه لا يخشى الا الله ولا يكون بخيلا لأنه واثق من عطاء الله ٠

الشرط الثالث : -

ألا يكون المشير عليك من أعدائك أو حاسديك ، فان العدو لا يقدم نصحا خالصا ، وكذلك الحاسد ٠

الشرط الرابع : -

أن يكون خالي البال من الهموم ، فاذا استشار الحاكم شخصا تجمعت عنده من المشاكل والمشاغل ما يفوق هموم الحاكم ومشاغله ، فان ذلك يؤثر على استشارته ٠

الشرط الخامس : -

ألا يكون له فى الأمر المستشار هوى أو مصلحة تؤثر فى رأيه ، من حيث لا يدرى ٠

الشرط السادس : -

أن يكون شجاعا بحيث يلقى بالمشورة الصادقة حتى ولو غضب الحاكم لو أنها جاءت على غير ما يهوى وينتظر ، فالاسلام لا يرى فى المشاورة وسيلة يشبع بها الحاكم أهواءه ٠

● ● ●

العـــدل والمســـاواة : -

أ - العـــدل : -

العدل احساس يبعث الارتياح فى النفس ، ضد كل ما يدفع الجور ويزيل الشعور بالظلم ويحقق العدل والمساواة ، والمساواة تكون فى تنصيف الشيء الى نصفين ، يتساويان اذا وقع التنصيف فى وســـطه ، بحيث لا يزيد أحد النصفين عن الآخر ولا ينقص عنه (١) . لذلك يرى فقهاء المسلمين ان العـدل هو الانصاف الى التنصيف المتساوى ، وقالوا عن العـدل أنه المساواة فى كل شيء ومن غير زيادة ولا نقصان .

« ومن هذا التعريف يتفق تعريف العدل فى الشريعة الاسلامية مع تعريفه فى الشرائع الأخرى » (٢) .

ويعترف العديد من المستشرقين أن هذان المبدأن كانا من أهم المبادىء التى جذبت - قديما وحديثا - العديد من الشعوب للاسلام ، فكانا بذلك مصدران من مصادر القوة للمسلمين .

ويتحقق العـــدل بتطبيق القاعدة القانونية الملزمة التى حـــددها الشرع سبحانه وتعالى .

ومنذ أن وجد الانسان نفسه فى الجماعات القديمة نراه يبحث عن العدل .. فلقد كان يعانى ظلم القوة ، ثم أخذ يعانى ظـــلم القوانين الوضعية التى وضعها البشر ، وان أعدل قانون قديم من قوانين البشر وضعه حامورابى كان يفرق بين الطبقات .

---

(١) عبد السلام الترمانينى - مفهوم العدل والعدالة فى الشريعة الاسلاميـة « مجلة الحقوق والشريعة - الكويت ، مج ٢ ع ١ ، ١٩٧٨ » ص ٢٥٧ .
(٢) عبد السلام الترمانينى - المرجع السابق ، ص ٢٥٨ .

ولقد واجهت القوانين البشرية قديما تيارين أحدهما فكرى والآخر تيار شورى • وأما التيار الفكرى فيتضح فى آراء الفلاسفة التى كانت تضع معايير للمشرع الذى يجب أن يقوم بعملية اصدار القوانين العادلة ، فذهب بعضهم الى أن المشرع يجب أن يكون حكيما ، وان الحكماء هم أصحاب الحق فى التشريع وهاجم بعض الفلاسفة القوانين البشرية واتهموها بالظلم والجور وأخذ بعضهم يتصور مدينة يحكمها القانون يسود فيها العدل وتغمرها السعادة ، كما كان فى تصور بعض فلاسفة الاغريق القدماء •

وأما التيار الثورى : فنجد التاريخ يعجز عن ذكره لكثرة الثورات فى تاريخ البشرية كالثورة الفرنسية •

ونستنتج من ذلك أحد أمرين : اما استسلام الضعيف ، وقد يكون هذا الضعف الغالبية الكبرى ويقبل القانون الذى تصنعه القلة القوية حتى ولو كان جائرا أو يتربص بالقوى ويتحين الفرصة للثورة عليه •

ومن هذا يتضح أن مفهوم العدل فى النظم والشرائع البشرية يعتمد على القوة والقهر وهو يختلف عن مفهومه فى الشريعة الاسلامية ، والسبب فى ذلك يعود الى الاختلاف فى معيار القوة فى النظريات والمذاهب الغربية هو جانب القوة المادية ، ونتيجة لذلك أضحى العدل رمزا للاحساس المكبوت وأملا حلوا يتغنى به الشعراء ، أما الاسلام فلقد جعل معيار القوة الايمان بقدرة الله لا بقدرة الانسان ، والعقل البشرى ما هو الا كاشف لهذه القدرة ، والايمان بقدرة الله كفيل بتساوى الحاكم والمحكوم فى الخضوع للقوة وتقيد كل منهما بحقوقه وواجباته •

فالايمان اذن هو الخضوع المطلق لقدرة الله ، والرقابة الدائمة التى تلازم القلب والعقل والضمير ، وبالعدل لا يخشى المؤمنون ظلما وجورا ، ومن هنا كان الايمان بالله سبحانه وتعالى أساسا للعدل ، وهو معيار داخل النفس كامن مستقر فيها •

ولقد جاءت الدعوة للعدل صريحة فى كتاب الله ، فيأمر الحاكم بالعدل بين الناس وفى حكمه ، قال تعالى فى سورة النساء : « **ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى اهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ان الله نعما يعظكم به ان الله كان سميعا بصيرا** » .

وهذه الآية خطاب صريح للحكام جميعا فى أى سلطة من الحكم فى الدولة سواء فى السلطة التنفيذية أو التشريعية أو القضائية ، فالآية تأمر كل من يحكم بين الناس أن يحكم بالعدل .

ولقد جاءت آية ثانية فى الكتاب الكريم فى سورة المائدة تقول : - « **سماعون للكذب اكالون للسحت فان جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وان تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وان حكمت بينهم فاحكم بينهم بالقسط ان الله يحب المقسطين** » .

وهذا الخطاب ليس موجها للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وحده ، بل الى كل حاكم يحكم وفى أى زمن يكون .

ويأتى خطاب الله عز وجل فى كتابه الكريم فى سورة الشورى ، وهو يتجه الى النبى داوود ، عليه السلام ، فيقول : « **يا داوود انا جعلناك خليفة فى الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب** » .

وقال الامام ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية : « ان هذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى .

ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله وقد توعد تبارك وتعالى من ضل عن سبيله وتناسى يوم الحساب بالوعيد الاكيد والعذاب الشديد (١) ٠

ولقد عنى الرسول صلى الله عليه وسلم فى أحاديث كثيرة بالأمر بالعدل والنهى عن الظلم ، ومن الأمثلة على ذلك فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا يظل الا ظله » : -

امام عادل ٠٠ وشاب نشأ فى عبادة الله ٠٠ ورجل قلبه معلق بالمساجد ٠٠ ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ٠٠ ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ٠٠ ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه » ٠

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « أحب الناس الى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلسا : امام عادل ، وأبغض الى الله تعالى وأبعدهم منه مجلسا : امام جائر » ٠

واستمر العمل بالعدل فى عهد الخلفاء الراشدين ، طبق الخلفاء الحكم على أنفسهم وعلى أسرهم دون حصانة أو تمييز لأحد على أحد ، ومن الأمثلة التى سجلها التاريخ لعمر بن عبد العزيز أن قتيبة بن مسلم الباهلى لما فتح سمرقند دون مراعاة لبعض القواعد الشرعية ، اذ باغت الاعداء عنوة بما يتنافى مع العدل ، فكتب أهالى سمرقند الى عمر بن عبد العزيز ، فرفع الأمر للقضاء فحكم القاضى باظراج المسلمين من سمرقند ٠ وما أن وصل نبأ الحكم الى المسلمين حتى خرجوا من سمرقند ، والعدل واجب حتى مع الاعداء ، وقد جاء فى كتاب الله الكريم : « **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون** » ٠

---

(١) مصطفى أبو زيد فهمى - مرجع سابق - ص ٤٥٦ ٠

لقد أقرت الشريعة الاسلامية العدل للأقليات الدينية ، والمقصود بهم أهل الذمة ، فتقرر الشريعة أن كفالتهم واجبة على الدولة مثل المسلمين سواء بسواء فهم متساوون في الحقوق وان تحمل المسلمون واجبات أكثر . وتقرر الشريعة الاسلامية حرية العبادة لهذه الاقليات فلا اكراه في الدين ولم يوجد دين قبل الاسلام أقر مبدأ التسامح كما أقره الدين الاسلامي ، ولم تعرف أوروبا التسامح الديني كما تقره الشريعة الاسلامية الا منذ وقت قريب وان لم تعادل في تسامحها التسامح الاسلامي ، فلقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته ، أو انتقص أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفسه ، فأنا حجيجه يوم القيامة ، ولا يكون الامام عادلا حتى يكون عماله عادلين لأنه مسئول عنهم ، فلا يجوز لهم ولا له أن يعتدوا على حريات الناس أو يؤذوهم »

ب - المساواة : -

ان المساواة من المبادىء الأساسية لنظام الحكم الاسلامي وأصل من أصوله وهي تتصل بالعدل ، لأن العدل لا يقوم الا اذا كان الناس سواسية ، أي متساوون في الحقوق والواجبات ، المساواة التي طبقها الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ولقد كان تقرير هذا المبدأ في القرآن الكريم وفي السنة الشريفة منذ ظهور الاسلام ، مما شكل انقلابا أساسيا في مفاهيم وأسس التفاضل والتفاخر بين الناس ، فلقد كان التمييز سائدا بين القبائل العربية حتى في شعائر العبادة الوثنية ، ففي أثناء الحج - مثلا - كان لقريش مناسك خاصة لا يشاركها في ذلك باقي الحجيج ، فلما حج عليه الصلاة والسلام ، ظن بعضهم أنه سوف يتبع عادة قريش في ذلك ، ولكنه لم يفعل ، وحج اتباعا .

يقول الله تعالى : « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس » ، ومن أول مظاهر المساواة في الاسلام قيامه صلى الله عليه وسلم بالمؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين

وتعتبر المؤاخاة أساس المساواة ومؤدية الى التكافل الاجتماعى وكلها سمات أصيلة وثابتة فى الفكر الاسلامى ، وعلى الرغم من أن المجتمع الاسلامى الأول كان يضم مسلمين من شعوب شتى ٠٠ الا أن الشريعة الاسلامية آخت بينهم ، فالمسلمين أخوة لا فضل لأحدهم على الآخر الا بالتقوى ، ويظهر ذلك واضحا فى قوله تعالى : « **يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير** » ٠

فالتقوى التى تشير اليها الآية السابقة ليس لها تأثير على تطبيق مبدأ المساواة فى الحياة ذلك أن التفاضل بالتقوى فى الآخرة لا فى الدنيا أمام الله لا بين الناس ، وهكذا « لا تعترف الدولة الاسلامية بأية امتيازات اجتماعية أو اقتصادية لفئة دون أخرى ، حيث أنهم جميعا أمام شريعة الله سواسية كأسنان المشط ، وقد أعلنها محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم عالية مدوية » حين جاء بعض أهله يطلبون منه العفو عن امرأة مخزومية سرقت فرد عليهم بقوله : « انما أهلك الذين من قبلكم انهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » ٠

ولقد ضرب صلوات الله وسلامه عليه أروع الأمثلة فى تطبيقه لهذا المبدأ حين رفع من قدر سلمان الفارسى وقال عنه سلمان منا آل البيت ، فرفعه بذلك الى مرتبة عالية لم يخص بها الكثير من الصحابة ، وكذلك فان صهيب الرومى لم يفارق الرسول صلى الله عليه وسلم ٠٠ فى حين أن أوروبا لم تعرف هذا المبدأ حتى أقر فى « اعلان الحقوق الفرنسى الصادر فى سنة ١٧٨٩ م ٠ والذى يعد أكثر اعلانات الحقوق شهرة ، لأنه أحرز قيمة عالمية لتبنى معظم دساتير العالم لمبادئه وتضمينها نصوصا تدل بوضوح التأثر به » (١) ٠

---

(١) محمد سليم العوا ـ مرجع سابق ـ ص ٢٣٩ ٠

ولقد ترتب على الأخذ بمبدأ المساواة أمام القانون زوال الامتيازات التى كان يتمتع بها النبلاء والاشراف فى فرنسا عقب الثورة الفرنسية وترتب على تقدير هذا المبدأ زوال النظام الاقطاعى الذى كان يملك الأراضى الشاسعة ومن عليها من البشر يرزحون تحت أغلال العبودية ٠

وخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع قائلا : « يا أيها الناس الا أن ربكم عز وجل واحد ، الا وأن أباكم واحد ، الا لا فضل لعربى على أعجمى ، الا لا فضل لأحمر على أسود الا بالتقوى ، الا قد بلغت ٠٠ فقالوا نعم ٠٠ قال ليبلغ الشاهد الغائب » ، ويكون الاسلام بهذا قد قضى على التمييز بين القبائل والأفراد ، التمييز الذى كان يفرق فيه بين دية المقتول على حسب مركزه وجاهه ، حيث كانت دية الاشراف أضعاف دية الأشخاص العاديون ٠

ولقد ضرب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه خـــير مثال فى المساواة أمام القانون ، فلقد كان الفاروق ينصح ولاته بأن يجعلوا الناس عندهم سواء قريبهم كبعيدهم ، وبعيدهم كقريبهم ونهاهم عن الرشوة والحكم بالهوى ولقد كان يقول : « لا أبالى اذا اختصم الى رجلان لأيهمـــا كان الحق » (٢) ٠ ولقد كان عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب فى مصر أيام كان عمرو بن العاص واليا عليها ، فشرب الخمر هو وصديق له يدعى أبو سروعة ، وذهبا الى عمرو بن العاص وطلبا منه أن يقيم عليهما الحد ، فقال عمرو بأنه زجرهما ، لكن عبد الرحمن قال له بأنه سيخبر أباه ان لم يرقع عليه الحد ، وفى تلك الاثناء دخل عليهم عبد اللـــه بن عمر وقال بأن أخاه لا يحلق على مرأى من الناس ، وأما الضرب فلعمرو الحرية فى اختيار المكان الذى ينفذ فيه ، وقام عبد الله بن عمر بادخال أخوه الى أحد البيوت وحلق له رأسه وجلده فى ساحة المنزل ، ولمـــا

---

(٢) مصطفى أبو زيد فهمى ـ مرجع سابق ـ ص ٤٧٤ ٠

وصل الخبر الى عمر بن الخطاب أرسل الى عمرو بن العاص منـــاديا اياه ،العاصي ابن العاص غاضبا من التفرقة بين الرعية مطالبـــا اياه بأن يبعث له ابنه ملفوفا في عباءة مشدودا على الابل حتى يعرف سوء ما صنع ٠٠ ولمـــا وصل عبد الرحمن الى المدينة المنورة ودخل على أبيه وهو لا يستطيع المشى من سوء مركبه ، ومع شفاعة عبد الرحمن بن عوف الذى قال لأباه قد أقيم عليه الحد ــ الا أن أمير المؤمنين أبى وأقيم الحد على عبد الرحمن والذى لم يتحمل ذلك فمات بعد شهر من ذلك ٠

والاسلام باقراره مبدأ المساواة لا يحول دون تفاوت الافراد فى مراكزهم الا اذا كان هذا التفاوت راجعا الى علم وتقوى ، فلقد قال تعالى : « **ورفعنـــا بعضكم فوق بعض درجات** » ٠

وان أخذ الاسلام بمبدأ المساواة بين المسلمين ليس معناه المساواة فى كل الأمور ، فالاسلام يكفل للذميين الحرية الشخصية وحرية ابداء الرأى وحرية العقيدة ، كما يحفظ لهم مالهم وأنفسهم وأعراضهم ، وكذلك يساوى الاسلام بين المسلمين والذميين أمام القضاء ،

فالمساواة والعدل اذن مدصلان ببعضهما البعض لأن اقامة العـــدل بين الناس يفترض التسوية بينهم وعدم التفاوت بينهم ، وقد أكد القرآن الكريم هذا المعنى فقال تعالى : « **يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكـــر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا** » ٠

وقال عليه الصلاة والسلام : « الناس سواسية كاسنان المشط » ، ويقول كذلك « لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى » ، ويشير القرآن الكريم الى أن اصل الانسان من آدم وآدم من تراب ، فالكل من أصل واحد فلا تمييز بسبب اللون والجنس أو النسب أو المال » (١) ٠

---

(١) عبد الرحمن الصابونى ــ محاضرات نظام الحكم فى الاسلام ، جامعة الامارات بدون تاريخ الطبع ــ ص ٨٩ ٠

الحرية فى الاسلام : -

ان أهم ما يميز التشريع الاسلامى هو سماحه بممارسة جميع أنواع الحريات العامة ، فالحريات فى الاسلام أصل عام ثابت يدل على ذلك طبيعة الاسلام كدين سماوى خاتم للرسالات السابقة ، وكذلك ما ورد فى الكثير من النصوص القرآنية والسنة النبوية ، ولكن الاسلام لا يسمح بالحرية التى يتضرر منها الآخرون ، فالحرية فى الاسلام لها حدود .

ويقول الله تعالى فى كتابه الكريم مخاطبا الرسول صلى الله عليه وسلم : « **ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن** » ..

بل وتعدى القرآن ذلك للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أنه لا سبيل الى الحجر على حرية الناس فى التفكير أو فى الاعتقاد وان كل واحد يختار لنفسه ما يراه مناسبا قال تعالى : « **ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض جميعا أفانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين** » .

ومن الدلائل الصادقة على تقرير القرآن الكريم لهذه الحقيقة فى حرية الانسان وانها فطرته أنه أباح للمسلمين ، بل أوجب عليهم حين تضيق أرض بهم وبدينهم أن يهاجروا منها الى غيرها توسلا الى حماية حريتهم فى العقيدة والبيان ، وهذه الهجرة يشترط فيها أن تكون الأرض يحكم فيها الاسلام وذلك ما حدث عند هجرة المسلمين الى الحبشة حيث كان أهلها وحاكمها من النصارى .

وربما يتصور البعض أن الحرية لكى تقوم لا بد أن تجد نصا صريحا يأذن بها القرآن الكريم أو السنة النبوية العطرة وهذا تصور خاطىء ، فالحرية فى أى مجال توجد بغير حاجة الى نص يأذن بها استنادا على الاباحة للأشياء .

وكان عبد الله بن العباس ، رضى الله عنه ، يقول : « ما لم يذكر فى القرآن فهو مما عفا الله عنه » .

وكان عبيد بن عمير يقول : « ان الله أحل وحرم فما أحل فاستحلوه وما حرم فاجتنبوه .. وترك بين ذلك أشياء لم يحـــرمها ولم يحلها ، فذلك عفـو من اللـــه » .

ثم يتلو قوله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا لا تسئلوا عن اشياء ان تبد لكم تسوءكم ، وان تسئلوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفور حليم** » .

ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذرونى وما تركتكم فيه ، فانما هلك من قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فاذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم واذا نهيتكم عن شىء فدعوه » .

فالحرية فى الاسلام أصل عام يمتد الى كل مجالات الحياة فما من مجال فى الحياة تدعو الحاجة الى الحرية فيه الا وترك له الاسلام حرية ممارســة الحرية فيه وحدود حريته ما نزل فى كتاب الله وسنة نبيه من تحـــريم أو نهى ، وما أكثر الآيات التى جاءت فى كتاب الله والتى تدعو الى الانطلاق فى شتى مجالات الحياة ، قال تعالى : « **هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشـوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور** » .

ولا يكره الاسلام أحدا فى الدخول فيه ، ولكنهم يتمتعون بحق حرية دخول الدين الاسلامى ويصبحون مسلمين لهم ما لهم وعليهم ما عليهم ولكنهـــم اذا اختاروا الدخول فى الاسلام فانهم لا يستطيعون الخروج منه ، ومن يفعل ذلك

---

(١) محمد سليم العوا ـ مرجع سابق ـ ص ٢٢٦ .
(٢) مصطفى أبو زيد فهمى ـ مرجع سابق ـ ص ٤٨٠ .

منهم فانه يعاقب عقوبة المرتد وذلك لأن الاسلام يرفض أن يكون لعبة يدخلونه ويخرجون منه متى يشاؤون ، ولقد حرم الاسلام مزاولة الخبائث والمعاصى كالخمر والميسر ويدعى الانسان لنفسه بشرط ألا يتضرر منها الآخرون ، فحرية الرأى مثلا حرية أصلية فى الاسلام ولكن على ألا تكون حريتك فى ابداء رأيك قذفا للآخرين ، وكذلك حرية التنقل ، فهى مكفولة فى ظل الحكم الاسلامى ولكنها قد تفيد أحيانا لأسباب يراها الحاكم ، كما فعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، مع نصير بن الحجاج ، فلقد كان يمر ببيوت المدينة ليلا يتفقد أحوال الرعية ، فاذا به يسمع امرأة تتغنى بنصير بن الحجاج ، فلما أصبح الصباح استدعى نصير فوجده جميل الوجه والملبس فأمره بأن يغادر المدينة الى البصرة وذلك لأن المدينة المنورة عندما تخرج منها الجيوش تترك خلفها العديد من النساء بغير أزواجهن ، فرأى عمر فى بقائه فى مدينة رسول الله - فى مثل هذه الظروف - ما قد يدعو الى الفتنة ، فأمر به أن يترك المدينة للبصرة .

ولقد كان الرسول الكريم ، صلى الله عليه وسلم ، يقيد من حرية التنقل فى بعض الأحيان اذا لزم الأمر ، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « اذا كان الطاعون ببلد فلا تدخلوه ، واذا كنتم به فلا تخرجوا منه » ، فالدخول الى بلد به الطاعون هو اهلاك للنفس والخروج منه وفيه الطاعون نقل هذا المرض الى خارج هذا البلد ، وكذلك حرية مزاولة الشعائر الدينية حرية مكفولة فى ظل الحكم الاسلامى ، ولكن قيد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب هذه الحرية بالنسبة لامرأة مجذومة رآها تطوف فى البيت الحرام فقال لها أن تجلس فى بيتها حتى لا تؤذى الناس .

وسبب ذلك خوف أمير المؤمنين من أن تنتقل العدو للمسلمين الذين يطوفون بأعداد ضخمة ، « فما كان من المرأة الا أن جلست فى بيتها ولم تطف ، وبعد أن انتقل عمر الفاروق الى الرفيق الأعلى قيل لهذه المرأة أخرجى

فان الذى نهاك عن الطواف قد مات - ولكنها أجابت : والله ما كنت لأطيعه حيا وأعصيه ميتا » (١) ، وفى هذه الامثلة نرى بأن الحرية فى الاسلام لا يمكن أن تكون مطلقة بدون قيود ، فاذا كانت حرية فرد سوف تؤدى الى الحاق الضرر بحريات الآخرين فانه يجوز تقييد حرية هذا الفرد . ولقد صور الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك فى حديثه الشريف : « مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوما استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذى فى أسفلها اذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فان تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وان أخذوا على أيديهم نجو ، ونجو جميعا » .

ولقد نهى الاسلام عن التجسس على الآخرين الا أن رأى الحاكم فى ذلك تهديدا للحكم فيجوز له التجسس ، ولقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يتجول فى المدينة ليلا كعادته فسمع حديثا بين رجلا وامرأة فهم منه أنه عندهما زق به خمر فقال للرجل : « يا عدو الله ، أكنت ترى ان الله يستترك وأنت على معصية » ..

فقال له الرجل : ان كنت أنا قد عصيت الله مرة واحدة فأنت قد عصيته ثلاث : - فالله تعالى يقول : « **وأتوا البيوت من ابوابها** » ، وأنت صعدت من الجدار .. والله يقول : « **لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على اهلها** » ، وأنت لم تفعل ، والله تعالى يقول : « **ولا تجسسوا** » ، وأنت تجسست علينا .. فقال أمير المؤمنين : ماذا تفعل ان عفوت عنك ؟ .. قال : لا أعود .. فعفى عنه أمير المؤمنين .. والسبب الذى دفع عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه للعفو عن هذا الرجل هو ادراكه أن استعمال اللين معه قد يدفع به الى التوبة الصادقة وذلك لأنه وجد أمامه رجل يعرف كتاب الله تمام المعرفة .

---

(١) مصطفى أبو زيد فهمى - مرجع سابق - ص ٤٨٧ .

ومن مظاهر حرية الرأى فى الاسلام أن الجهر بالرأى واجب وليس مجرد حق ، فالشريعة الاسلامية توجب على المسلمين أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، والواقع أن تقرير واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يعتبر سبقا تميزت به شريعة الاسلام فى مجال الحرية ولم تصل الى مثله بعد أية شريعة من الشرائع الوضعية ٠

والأدلة القرآنية التى قدمناها تبيح للناس أن يكونوا أحرارا فيما يعتقدون وفيما يقولون ، وتصنيف شريعة الاسلام الى ذلك ايجابها على المسلمين أن يقولوا ما يعتقدون أنه الحق ، فلحرية الرأى فى الشريعة الاسلامية شقان : - « الاباحة والايجاب ، والفارق بينهما هو الفارق بين الواجب والمباح ومن ثم لا يحتاج الى كثير بيان » ، ومن هنا يبدو أن للحق مغزى اذ لا يجوز منع صاحب الحق من استعمال حقه متى توافرت الشروط المقررة لاستعماله ، والأهم ألا يسيىء صاحب الحق استعمال حقه ، بينما الواجب مؤداه أنه يجب على المكلف أدائه والا كان آثما مستحقا للعقاب ٠ ومن هنا يتضح الفارق بين تقرير الشريعة الاسلامية لحرية الرأى بشقيه وبين التشريعات الوضعية التى تكتفى بشق الاباحة ، واذا كان ذلك هو المدى الذى بلغته التشاريع الاسلامية فى تقرير حرية الرأى فانه يمكننا أن ندرك بوضوح الى أى مدى يقرر تشريع الاسلام ويحمى غيرها من الحريات ، ونذكر هنا بعض مواقف العلماء المسلمين فى الجهر بآرائهم السياسية فى مواجهة الحكم ، غير مبالين بعواقب الأمور ، والعلماء المسلمون - بذلك - متبعين لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث يقول لأصحابه : « الدين النصيحة » ٠

فلقد كان عمر بن هبيرة واليا ليزيد بن عبد الملك ، فدعا الحسن البصرى وابن سيرين والشعبى يوما وقال لهم بأن أمير المؤمنين كتب اليه فى أمر ان فعله خاف على دينه وان لم يفعله خاف على نفسه ٠٠ فقال له الثلاثة على لسان حسن البصرى : « أيا ابن هبيرة : خف الله فى يزيد ولا تخف يزيد فى

الله - يا ابن هبيرة ان الله يمنعك من يزيد ويزيد لا يمنعك من الله - يا ابن هبيرة أنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق فما وافق كتاب الله من كتب يزيد فتنفذه وما خالفه لا تنفذه » (١) .

والدفاع عن الحـــرية واجب مقدس فى الاسلام ، فلقد وضـــع الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم المبدأ لذلك حيث قال « لا ينبغى لمؤمن أن يـذل نفسه » .

وفى حديث آخر قال عليه الصلاة والسلام « من أعطى الذلة من نفسه طائعا غير مكره فليس منا » ، وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام « من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون دمه فهو شهيد ومن قتل دون دينه فهو شـــهيد ومن قتل دون أهله فهو شهيد » .

وهذه الاحاديث تبين لنا مدى العزة الانسانية فى الاسلام وشدة احترامه لحرية لفرد وكرامته ، فالاسلام يريد لأبنائه أن يكونوا أعزاء بالدين فى الدنيا

ويزخر تاريخ الدولة الاســـلامية بالأمثلة على تســـامح حكام المسلمين مع غير المسلمين من أهل الكتاب تسامح لم يشهد مثله فى غير الحكم الاسلامى وذلك ما يعترف به فلاسفة الغرب وعلى سبيل المثال قول المؤرخ والفيلسوف الامريكى « درايبر » أن المسلمين الاولين فى عصر الخلفاء لم يقتصروا فى معاملة أهل العـــلم النصارى ومن اليهـــود على مجـــرد الاحترام ، بل فوضـــوا اليهم الكثير من الاعمال الجســـام ورقوهم الى المناصب فى الدولة حتى أن هارون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة يوحنا بن ماسويه .

ويقول العالم المستشرق البريطانى السير أرنولد توينبى « اننا اذا نظرنا الى التسامح الذى أمتد الى رعايا المسلمين من المسيحيين فى صـــدر الحكم

الاسلامى فقد يكون بعيد التصديق (١) ٠

ويذكر العديد من الامثلة على ذلك فعلى سبيل المثال نعم الاقباط المصريون بحرية لم ينعموا بها قبل الفتح الاسلامى وكفل لهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية ٠

كما يذكر رلنا عن الفتح العربى لاسبانيا انه آدى الى تخليص اليهود من اضطهاد الكاثوليك فاعتبر اليهود العرب مخلصين لهم من المظالم ، ويذكر لنا التاريخ أن فتح الاسلام لمناطق فارس والهند لم يتم عن طريق القوة بل تركوا لاهل تلك المناطق حرية اقامة شعائرهم ـ مما دفع بهم الى الدخول الى الاسلام ٠

ومن هذا كله يتضح أن الاسلام هو دين يكفل الحريات لجميع الناس ولا يفرق بين أحد ٠

● ● ●

(١) عبد الحميد متولى ، مبادىء نظام الحكم فى الاسلام ، الاسكندرية ، دار المعارف للنشر ، ١٩٧٨ ، ص ٢٢٣ ٠

البيعـــة فى الاســـلام

وردت كلمة البيعة فى اللغة العربية بعدة معان منها معنى الصفقة على ايجاب البيع وكذلك بمعنى المبايعة والطاعة ٠

والبيعة فى الاسلام هى الموافقة على اختيار الخليفـــة ومعـاهدته على الطاعة وهو الاساس الاول الذى يقوم عليه نظام الحكم فى الدولة الاسلامية وتتم البيعة بشكل تعاقد حقيقى بين المسلمين ومن أهل الحل والعقد ويعاهدون نبه الخليفة على الطاعة فيما أمر الله واباح ويتعهد الخليفة بان يقيم فيهم حكم الله ٠ فالبيعة عقد يحمل التزامات متبادلة ٠

ولقد قال بن خلدون : (اعلم أن البيعة هى العهد على الطاعة كأن المبايع يعاهد امره على أن يسلم له النظر فى امر نفسه وامور المسلمين لا ينازعه فى شىء من ذلك ويطيعه فيها يكلفه به من أمر على المنشط والمكره) (١) ٠

ولقد وردت كلمة البيعة فى الكتاب والسنة كثـــيرا وجاءت معبرة عن مقصود خاص من الكلمة على عدة وجوه :

اولا : البيعة فى القرآن الكريم :

قال تعالى : « **ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم واموالهم بان لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم** » (١) ٠

وقوله تعالى : « ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله ، يد الله فوق ايديهم فمن نكث فانما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه اجرا

---

(١) محمد فاروق النبهان ـ نظام الحكم فى الاســـلام ـ (الكويت : جامعة الكويت ـ ١٩٧٤) ص ٤٧٨ ٠

(١) سورة التوبة « آية ١١١ »

عظيما » (٢) ٠

وكذلك قوله تعالى : « لقد رضى الله عن المؤمنين آذ يبايعـــونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فانزل السكينة عليهم وآثابهم فتحا قريبا » (٣)

من الاية الاولى يتضح ان البيعة مطلوبة من المؤمنين وبالاخص من اولئك الراغبين فى شراء الجنة مضحين بانفسهم واموالهم وليس هناك احد أوفى من الله بعهده ٠

وفى الاية الثانية يبين الله تبارك وتعالى ان الذى ينكث بالبيعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه يخرج نفسه من الجنة ويبؤ بغضب الله ويخلع عن نفسه الصفة التى منحها الله سبحانه وتعالى للمؤمنين بعهدهم اذا عاهدوا ٠

البيعة فى السنة :

جاءت السنة ببيان ما هى البيعة ـ فجاءت البيعة بمعنى العهد والميثاق فى مواقف عديدة ابرزها ما تم فى بيعة العقبـــة الثانية حيث بايـــع الاوس والخزرج الذين حضروا هذه البيعة الرسول صلى الله عليه وسلم على اقامتها فى المدينة لذلك كانت البيعة على الاسلام والحرب والطاعة فلقد طلب الرسول صلى الله عليه وسلم منهم ذلك بقوله « ابايعكم على أن تمنعونى مما تمنعـــون منه نساءكم وبناءكم ٠٠٠ فأخذ البراء ابن معرور بيـــده ثم قال (نعم والذى بعثك بالحق نبيا لنمنعك مما نمنع منه أزرنا فبايعنا يا رســـول الله ، فنحن ابناء الحروب واهل الحلقة ورثنا كابر عن كابر » (١) ٠

أما بيعة الشجرة فكانت بيعة قتال المشركين وســـببها ان الرســـول

---

(٢) سورة الفتح « آية ١٠ »
(٣) سورة الفتح « آية ١٨ »
(١) محمود عبد المجيد الخالدى ـ نظام الحكم فى الاسلام (الكويت : دار البحوث العلمية ـ ١٩٨٠) ص ص ١٠٢ ـ ١٠٣ ٠

صلى الله عليه وسلم لما نزل بارض الحديبية بعث بأحد المسلمين (جواس بن امية الخزاعي) الى اهل مكة بغية اقامة بعض التفاوض الا انهم غدروا - وحاولوا قتله لولا أن منعهم بعض الاقوام فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم اليهم رسولا آخر هو عثمان بن عفان فتأخر في للرجوع وشاع في المسلمين أنه قتل عندئذ دعا الرسول (صلعم) المسلم ين الى مبايعته على قتال المشركين فتسارعوا الى التلبية وكان عددهم حينئذ يزيد على الالف وخمسمائة رجل ·

أصل مشروعية البيعة :

السنة :

أما الدليل على وجوب البيعة فهو قول الرسول صلى الله عليه وسلم « من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة الجاهلية » (١) ·

فهذا الحديث يحث على المبايعة ويتوعد تاركها فيدل على وجوب مبايعة الامام · فالبيعة فرض عليهم جميعا يثاب فاعلها ويعاقب تاركها لان في ذلك معصية لله تبارك وتعالى ·

ولقد نهى الله عز وجل عن الغدر في البيعة ، ولهذا فان رسول الله صلى الله عليه وسلم غضب اشد الغضب على من غدروا ببيعته (وهم من بني سليم ورعل وزكوان) وظل يقنت عليهم في صلاته ويدعوا عليهم شهرا (٢) ·

ودلالة النصوص على وجوب البيعة من عدة وجوه هي :

١ - ذم الشارع لمن مات وليس في عنقه بيعة :

أن وصف من مات وليس في عنقه بيعة لامير بأنه مات ميتة الجاهلية والجاهلية كفر وضلال ·

---

(١) محمود عبد المجيد الخالدي - مرجع سابق - ص ١٠٦

(٢) مصطفى كمال وصفي - مصنفة النظم الاسلامية - (القاهرة مكتبة وهبة ، بدون تاريخ نشر) ص ٢١٨ ·

٢ ـ وجوب الوفاء بالبيعة شرعا :

أمر الله عز وجل بالوفاء بالبيعة وبطـــاعة اولى الامر فى قوله تعـــالى **« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم »** (١) ٠

٣ ـ أمر الشرع بقتل من يطلب البيعة مع وجود الامام :

حرمت النصوص الرجوع فى البيعة وامرت بقتـــل من يطلب من الامه بيعة مع وجود امام آخر (واذا تشبث الطرفان رغم ظهور احقية أحدهمـــا بالتحكيم أو الحكم القضائى ساغ قتل الاخر لحديث الرســـول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا بويع الاثنان فاقتلوا احداهما ») (٢) ٠

اجماع الصحابة :

عند مواجهة الصحابة لاول مشكلة سياسية بعد وفاة صلى الله عليه وسلم بادروا بالاجماع فى السقيفة لاختيار خليفة والجسد الشريف لم يدفن بعد ، وهذا تاكيد لاهمية وجوة خليفة يمارس أمور الحكم ٠ ولقد جـــرى اختيـــار سيدنا ابو بكر الصديق بعد أن دار حوار بين الانصار وابو بكر وعمـــر وابو عبيدة كما سيأتى بعد قليل ٠

وكذلك حدث عندما احس ابو بكر الصديق بدنو اجله نظر فوجد الفاروق عمر بن الخطاب هو افضل من يستطيع ان يقوم على أمر المسلمين من بعـده فاستشار أهل الحل والعقد من كبار الصحابة ووجد بان لديهم قبولا وترحيبا باختياره ٠ وهكذا تمت مبايعة عمر بن الخطاب من قبل المسلمين جميعا ٠

---

(١) سورة النساء : « آية ٥٩ » ٠
(٢) مصطفى كمال وصفى ، مرجع سابق ، ص ٢١٩ ٠

صفة عقد البيعة

والبيعة حق لكل مسلم ومسلمة أما صفة اخذ البيعة فان الله عز وجل لم يحدد الصفات والوسائل التى يتم بها اخذ البيعة .

ففى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت البيعة تتم باللفظ تقول الشخص لمن يبايعه بايعتك كذا وكذا (١) .

وكثيرا ما تيصافح الطرفان بالايدى كدليل على قوة هذا العقد والعمل بينهما .

وكذلك كانت بيعة النساء مصافحة باليد كالرجال وقد وردت روايات فى صفة بيعة النساء بعضها يفيد انها كانت مصافحة باليد وبعضها الاخر باليد من تحت الثوب .

أما الفاظ البيعة فتختلف حسب الموضوع .

شروط صحة البيعة :

الاسلام :

وذلك لأن البيعة على الاسلام وعلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهى بهذا تقتضى الايمان بالاسلام ، أما غير المسلمين فلا حق لهم فى مبايعة الخليفة ، لا بيعة انعقاد ولا بيعة طاعة ، وذلك لأنه لو جعل لهم حق فى البيعة لعقدوا لمن أرادوا ، وبشروط ، وهذا لا يجوز شرعا لقول الله عز وجل : « **ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا** » (٢) .

البلوغ : -

لا تؤخذ البيعة من صبى لم يبلغ بعد ، لأنه عمل سياسى قد يستطيع فهمه

---

(١) محمود عبد المجيد الخالدى - مرجع سابق - ص ١٣٠ .
(٢) سورة النساء - آية ١٤١ .

وادراكه ، ولكن البيعة لا تؤخذ منه ، ولقد حدث أن ذهبت أم بولدها للرسول صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله بايعه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : هو صغير ٠٠ ومسح على رأسه ودعا له ٠٠ ولم يقبل أن يبايعه بسبب صغر سنه (١) ٠

العقـــــل : ـ

فالبيعة من أفعال المكلفين ولا تكليف لغير العاقل ٠

الرضا والاختيـــار : ـ

لقد جعل الشرع البيعة بالرضا التام ، فالرضا شرط لصحتها ، ولا يجوز الاكراه عليها لأنها حق من حقوق المسلمين ، والدليل على أن الرضا شرط من شروط صحتها هو السنة واجماع الصحابة ، فلقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذى يسعى فى طلبها من زعماء الناس ووجهائهم ، وهو يقول : لا أكره أحد منكم على شيء ، من رضى منكم بالذى أدعوه اليه فذلك ومن كره لم أكرهه ، انما أريد أن تحرزونى فيما يراد لى من قتل حتى ابلغ رسالة ربى ٠

وكذلك فعل أبو بكر رضى الله عنه حين رشح عمر بن الخطاب لرئاسة الدولة من بعده فقال « أيها الناس انى عهدت عهدا أفرضيتم به ؟ » ٠

(١) محمود عبد المجيد الخالدى ـ مرجع سابق ـ ص ١٣٠ ٠

خلافة ابو بكر الصديق : -

اجتماع السقيفة : -

توفى الرسول صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة دون أن يعين خليفة من بعده ، وفى الوقت الـــذى كان يجرى فيه تجهيز الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، اجتمع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة ليتداولوا أمر الخلافة من بعد وفاة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، حيث كانوا يرون بأنهم أحق بالخـــلافة لأنهم هم الذين ناصروا الرســـول ، صلى الله عليه وسلم ، حـــين طرده قومه ، وهم الذين صدقوه حين كذبه قومه .

وكان سعد بن عباده ، سيد الخزرج ، هو مرشحهم للخلافة ، وأحضر وهو مريض فلم يستطع أن يخطب فيهم ، فأخذ يملى أحـــد أقاربه ليسمع القوم فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « يا معشر الأنصار لكم سابقتكم فى الدين وفضيلة فى الاسلام ليست لقبيلة من العرب .. ان محمد عليه الصلاة والسلام لبث بضع عشرة سنة فى قومه يدعوهم الى عبـــادة الرحمن ، وخلـع الانداد والاوثان ، فما آمن به من قومه الا رجال قليل ، ما كانوا يقدرون عـــلى أن يمنعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أن يعزوا دينه ، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم فيما عموا به ، حتى اذا أراد بكم الفضيلة ساق اليكم الكرامة وخصكم بالنعمة فرزقكم الايمان به وبرسوله ، والمنع له ولأصـــحابه .. والاعزاز له ولدينه ، والجهاد لأعدائه ، فكنتم أشد الناس على عدوه حتى استقامت العرب لأمر الله طوعا وكرها ، وأعطى البعيد المقادة صاغرا وآخرا حتى أثخن الله عـــز وجل لرسوله بكم الأرض ، ودانت بأسيافكم له العرب وتوفاه الله وهو عنكم راضى وبكم قرير عين ، استبدوا بالأمر دون الناس فانه لكم دون الناس » .

ومن هذه الخطبة تبين أن سعد بن عباده كان يرى أن المهاجرين قد استبدوا بالأمر دون الانصار ، وان الانصار هم الأحق بالولاية لما قدموه من الاعمـــال

لنشر الدين الاسلامى والوقوف فى وجه المشركين ، ولقد جازت هذه الخطبة على استحسان الانصار ، ولما بلغ أمر اجتماع الانصار الى عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، ذهب الى بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأخبر أبو بكر الصديق بما جرى وذهب الاثنان مع أبو عبيدة بن الجراح رضى لله عنه الى سقيفة بنى ساعده حيث يجتمع الانصار ، وفوجىء الانصار بحضور الثلاثة فأراد عمر أن يتكلم الا أن أبو بكر الصديق أرجأه ، وربما لأنه خشى الشدة المعهودة فى عمر وهذا الموقف يحتاج الى السياسة واللين ، فنهض أبو بكر الصديق فحمد الله وأثنى عليه وذكر رسول الله وما جاء به من رسالة ثم قال « عظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه ، والايمان به ، والمؤاساة له ، والصبر معه ، على شدة أذى قومهم وتكذيبهم اياهم ، وكل الناس مخالف لهم زار عليهم ، فلم يستوحشوا لقلة عددهم ، وشنق الناس لهم ، واجماع قومهم عليهم . فهم أول من عبد الله فى الأرض ، وآمن بالله وبالرسول .. وهم أولياؤه وعشيرته ، وأحق الناس بهذا الأمر من بعده » (١) .

« وأنتم يا معشر الانصار من لا ينكر فضلكم فى الدين ولا سابقتكم العظيمة فى الاسلام ، ورضيكم الله أنصارا لدينه ورسوله ، وجعل اليكم هجرته ، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه ، فليس بعد المهاجرين الأولين بمنزلتكم — فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تفتاتون بمشورة ، ولا تقضى دونكم الأمور » .

ولقد كان لخطبة سيدنا أبو بكر الصديق أثر فى نفوس الانصار وخاصة الاوس وكذلك العديد من الخزرج ، فلقد بين الصديق رضى الله عنه ، أن للانصار المكانة الأولى لدى المهاجرين يشاورهم فى كل الأمور .. وأبو بكر الصديق بذلك لم يرد للمهاجرين الاستبداد بالأمر دون الناس كما فعل سعد

---

(١) محمد حسين هيكل « الصديق أبو بكر » — القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٤ — ص ٥٦ .

ابن عباده ، ولا جرم اذا أن يستريح الجميع لهذا القول فهو العدل وأساسه كل الحق .. ولكن مع ذلك بقى عدد من المتحمسين للانصار فقال أحدهم : « أما بعد ، فنحن أنصار الله وكتيبة الاسلام ، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا وقد دفت دافة من قومكم واذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا ويقصون الأمر » (١) .

ولم يرض أبو بكر ما سمع فقال مرة أخرى مخاطبا الانصار : « أيها الناس نحن المهاجرون أول الناس اسلاما وأكرمهم أحسابا ، وأوسطهم دارا ، وأحسنهم دارا ، وأحسنهم وجوها وأكثرهم ولادة فى العرب ، وأحسنهم رحما برسول الله صلى الله عليه وسلم ، أسلمنا قبلكم ، وقدمنا فى القرآن عليكم فقال تبارك وتعالى : « **والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان** » .

« فنحن المهاجرين وأنتم الانصار اخواننا فى الدين ، وشركاؤنا فى الفىء وأنصارنا على العدو . وأنه ما ذكرته فيكم من خير فأنتم له أهل ، وأنتم الأجدر بالثناء من أهل الأرض جميعا ، فأما العرب فلن تعرف هذا الامر الا لقريش فمنا الامراء ومنكم الوزراء .

ولقد كرر أبو بكر الصديق هذه الكلمات الأخيرة التى تركت من الأثر فى النفوس ما تحجس غلاة الانصار معه خيفة ، فقام الحباب بن المنذر فقال : « يا معشر الانصار أملكوا عليكم أمركم ، فان الناس فى فيئكم ولن يجثى مجترىء على خلافكم ، ولن يصدر الناس الا عن رأيكم أنتم أهل العزة والثروة وأولوا العدة والمنعة والتجربة ، وذو البأس والنجدة ، وانما ينظر الناس الى ما تصنعون . فلا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم ، ويتقص عليكم أمركم الى

---

(١) محمد حسين هيكل - المرجع السابق - ص ٥٧٠ .

هؤلاء الا ما سمعتم فمنا أمير ومنكم أمير » (١) ٠

وما أن انتهى الحباب من حديثه حتى نهض عمر بن الخطاب وقال : « هيهات لا يجتمع اثنان في قرن - والله لاترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم ، ولكن العرب لا تمتنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم وولى أمورهم منهم ولنا بذلك على من أبى العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين - من ذا ينازعنا السلطان محمد وأمارته ونحن أولياؤه وعشيرته الا مدل بباطل أو متحالف لاثم أو متورط في هلكه » ٠

فقال الحباب للانصار بأن لا يستمعوا الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وأنه اذا لم يقبل المهاجرين بما يقول به الانصار فانه لا بد من اجلاءهم ٠٠ فقال له عمر بن الخطاب : « اذا يقتلك الله » ، وأجاب الحباب : « بل اياك يقتل » ٠٠

وهنا تدخل أمين الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح فقال موجها حديثه الى اهل المدينة : « يا معشر الانصار كنتم أول من نصر وآزر ، فلا تكونوا أول من بدل وغير » ٠٠ ويبدو أن الاوس خشيت أن يصبح للخزرج فضيلة عليها اذا ما قدر لها أن تتولى أمر الخلافة ، ولهذا قام بشير بن سعد سيد الاوس وقال : « يا معشر الانصار انا والله لئن كنا أولوا فضيلة في جهاد المشركين ، وسابقة في هذا الدين ، ما أردنا به الا رضاء ربنا وطاعة نبينا ، والكدح لأنفسنا ، فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك الا أن محمدا ، صلى الله عليه وسلم من قريش وقومه أحق به وأولى وايم الله لا يرانى الله انازعكم هذا الأمر ابدا فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم » ٠

واجال أبو بكر الصديق بصره في الانصار فيرى اثر مقالة بشير بن سعد فيهم فرأى بان اكثرهم قد اقتنعوا ٠٠ فاراد ابو بكر بحكمته ان يضع حدا للخلاف فقال : « هذا عمر وهذا ابو عبيدة فايهما شئتم فبايعوه » ٠

---

(١) محمد رضا - مرجع سابق - ص ٢٩ ٠

وهنا كثرت الآراء ، ايختارون عمر وهو الشديد ، وهو مستشار النبى وابو حفصة ام المؤمنين .. ام يبايعون ابا عبيدة وهو الذى قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لكل أمة أمين وامين هذه الأمة أبو عبيدة » .. ولكن عمر بن الخطاب وضع حدا للخلاف وصاح مناديا بأعلى صوته : « ابسط يدك يا أبا بكر » وبسط سيدنا أبو بكر الصديق يده وهو يقول « الم يأمر النبى بأن تصلى أنت يا أبا بكر بالمسلمين فنحن نبايعك لنبايع خير من أحب رسول الله منا جميعا وأنت أفضل المهاجرين وثانى اثنين اذ هما فى الغار ، فمن ذا الذى ينبغى له أن يتقدمك » .. ولكن بشير بن سعد سبقهم الى أبو بكر الصديق وبايعه .. ولما رأت الاوس ما صنع بشير بن سعد وما تدعو اليه قريش وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عباده .. قال بعضهم لبعض وفيهم أسيد ابن حضير أحد النقباء : « والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة ما زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم معهم نصيبا أبدا فقوموا وبايعوا أبا بكر » فقاموا اليه فبايعوه (١) .

وهكذا اقبل الحاضرين يبايعون أبو بكر حتى كادوا يطأون سعد بن عباده وهو مريض لا يستطيع النهوض .

العوامل التى دفعت الانصار الى هذا الاجتماع : -

عامل نفسى : -

سببه الخوف الذى انتاب بعض الانصار من أن يستبد من يتولى أمر المهاجرين ويميل الى أهله وعشيرته ، ويتضح ذلك من قول الحباب بن المنذر حين خاطب قومه بعد مبايعتهم لأبى بكر الصديق : « فعلتموها يا معشر الانصار أما والله لكأنى بأبنائكم على أبواب أبنائهم قد وقفوا يسألونهم بأكفهم ولا يسقون » .

---

(١) عبد الوهاب النجار - مرجع سابق - ص ٣٢ .

ولقد استنكر أبو بكر الصديق ذلك وقال مخاطبا الحباب : « أمنا تخاف يا حباب ؟ » فيقول : « ليس منك أخاف ولكن ممن يجيء بعدك » .

عامل قبلي :-

نابع من التقاليد العصبية المترسخة في نفوسهم حيث اختاروا هذا المكان في صميم الأرض التي يمتلكها بعضهم وحتى يكونوا على منعزل عن المهاجرين ، ولقد دهشوا حين رأوا أبو بكر وصاحبيه داخلين عليهم الاجتماع ، وكذلك شعورهم بأنهم هم أصحاب البلد وأنهم أهل الغلبة والنفوذ .

نظرة الانصار للنبي صلى الله عليه وسلم :-

كانت نظرة الانصار للرسول صلى الله عليه وسلم على أنه واحد منهم ، ولقد اعتمدوا على قول الرسول صلى الله عليه وسلم الذى اعتبر نفسه يتربيا عند بيعة العقبة اذ قال عليه الصلاة والسلام للانصار « الدم الدم والهدم الهدم » ، أى بأنه منهم ، وكذلك لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يستشير الانصار فى كافة الأمور ، فلقد حدث عند خروجه بالمسلمين لغزوة بدر الكبرى أن وافقه المهاجرين على التصدى لقريش ، فاستشار الانصار واطمأن على مواقفتهم ، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم بعد يوم حنين بأنه لو سلك الناس طريقا وسلك الانصار طريقا لسلك طريق الانصار ..

النتائج التى ترتبت على اجتماع السقيفة :-

- أولى المسلمون عملية اختيار خليفة لرسول الله صلى الله عيله وسلم الاهمية الاولى والدليل على ذلك تركهم الجسد الشريف على فراشه لم يدفن ، وذلك يدل دلالة واضحة على اهتمام المسلمين باختيار الخليفة فى اطار استمرارية الاسلام .

- اقرار مبدأ الشورى الذى أنزل به القرآن الكريم ، ولقد اتضح ذلك فى المناقشات التى دارت فى سقيفة بنى ساعده ، فالمهاجرين لم يوافقوا على

انفراد الانصار بالخلافة ، وطرح كل من الانصار والمهاجرين حجة وتفوقت حجة المهاجرين وبويع أبو بكر الصديق ٠

- يستبين المجتمعون الحق ويعودون اليه دونما مكابرة أو معاندة ولا سيما جانب الانصار الذين كانوا يطالبون بالأمر أولا ، وفى هذا بيان أكيد أن المبادىء الاسلامية هى الأعلى ٠

● ● ●

البيعة العامة : -

لما بويع أبو بكر خليفة لرسول الله صلى اللى عليه وسلم فى سقيفة بنى ساعده ، وكان اليوم الثانى جلس فى المسجد ٠ فقام عمر بن الخطاب معتذرا عما قال بالامس من أن النبى لم يمت فقال : « انى قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت مما وجدت فى كتاب الله ، ولا كانت عهدا عهده الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنى قد كنت أرى أن رسول الله سيدبر أمرنا ويبقى ليكون آخرنا ٠٠ وان الله قد أبقى كتابه الذى هدى به رسوله ٠٠ فان المعتصم به هداكم الله كما هداه به - وان الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسوله صلى الله عله وسلم ، وثانى اثنين اذ هما فى الغار ، فقوموا فبايعوه » (١) ٠

ومن ثم قام أبو بكر الصديق وخطب قائلا : « والله ما كنت حريصا على الامارة يوما ولا ليلة قط ، ولا كنت راغبا فيها ، ولا سألتها الله فى سر ولا علانية ، ولكنى أشفقت من الفتنة وما لى فى الامارة من راحة ، لقد قلدت أمرا عظيما ما لى به من طاقة ولا يد الا بتقوية الله » (٢) ٠

ومن ثم قال خطبته المشهورة : « انى وليت عليكم ولست بخيركم ، فان

---

(١) محمد حسين هيكل - مرجع سابق - ص ٦٢ ٠
(٢) الامام الحافظ جلال الدين بن أبى بكر السيوطى « تاريخ الخلفاء » - بدون بلد النشر ٠ مطبعة السعادة ، ١٩٥٢ ، ص ص ٦٩ - ٧٠ ٠

أحسنت فأعينونى وان أسأت فقومونى ، أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فان عصيت فلا طاعة لى عليكم ، الصدق أمانة والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له ، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه ان شاء الله لا يدع أحدكم الجهاد فانه لا يدعه قوم الا ضربهم الله بالذل » ٠

ومن هـــذا يتضح بأن أساس تعيين الخليفـة هو البيعة العامة ٠ فلا بد للمرشح للخلافة من الحصول على البيعة العامة ٠٠ فلو نظرنا مثلا الى بيعة عمر بن الخطاب رضى الله عنه لوجدنا ان أبو بكر الصديق خليفة رسول الله رشحه للخلافة بعد مشورة كبار الصحابة ، ومن ثم بويع بيعة عامة ٠ ولقـد وضع الفقهاء شروطا خمسة هى : ـ

« العلم ـ العدالة ـ والكفاية ـ وسلامة الحواس والأعضاء ، بما يؤثر فى الرأى والعمل ، والنسب القرشى » ٠

ولقد اختلف على الشرط الخامس ، خاصة بعد اتساع الدولة الاسلامية ، ودخلت عناصر متعـــددة فى الاســـلام ، فأصبحت الخـــلافة حقـــا لكل مســـلم حـــر ٠

أولا ـ العوامل التى رجحت اختيار أبو بكر الصديق خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ـ

١ ـ اعتمد المهاجرون على أحقيتهم بالخـــلافة عند النقاش فى ســقيفة بنى ساعده ، قال تعالى فى سورة التوبة : « السابقون الأولون من المهاجرين والأنصـــار » ٠

٢ ـ منزلة أبو بكر الصديق من الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبته له فى جميع مراحل الدعوة للاسلام ، ولقد نزلت فيه آيات من القرآن الكريم مثال قوله تعالى : « ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه » ٠

لوقد قال عنه رسـول الله صلى اللـه عليه وسلم : « ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد أفضل من أبى بكر الا أن يكون نبى » .

٣ - أشاد الرسول صلى الله عليه وسلم به فى عدة مواقف ، فلقـد قال الرسول صلى الله عليه وسلم فى مدحه : « ما دعوت أحد الى الاسلام الا كانت فيه عنـده كبوة ونظـر وتردد ، الا ما كان من أبى بكر بن أبى قحافة ، أى ما تأخر وما تردد عنه حين ذكرته له وما تردد فيه » (١) .

٤ - قوة ايمانه وارادته ، ولقد بدى ذلك واضحا حين وتفى رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم ، حيث تحمل المسئوليـة كاملة وجابه المسلمين بالحقيقة ، فى حين أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لم يصدق ذلك ، ووقع شبه مغشى عليه .

٥ - أنابه الرسول صلى الله عليه وسلم عنه ليصلى بالمسـلمين عندما كان مريضا ، وكذلك أمره على الحج فى السنة التاسعة للهجرة - وهـذا ما دفع المسلمين أن يقولوا عند اجتماع السقيفة لقد ارتضاه الرسـول صلى الله عليه وسلم لأمور ديننا أفلا نرتضيه لأمور دنيانا .

ثانيا - موقف على بن أبى طالب من بيعة ابو بكر : -

على الرغم من أن المسلمين قد أعطـوا موافقتهم لاسناد رئاسـة الدولة الاسلامية لأبى بكر الصديق خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم الا انه قد تمنع نفر قليل من بنى هاشم وبعض المهاجرين أمثال العباس بن عبد المطلب، الفضل بن العباس ، الزبير بن العوام ، خالد بن سعيد ، المقداد بن عمـر ، سليمان الفارسى ، أبو ذر الغفارى ، وعمار بن ياسر ، حيث رأوا بأن على بن أبى طالب أحق بالأمر لقرابته من الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويذكـر

---

(١) محمود الخالدى - مرجع سابق - ص ٢٦٧ .

العديد من المؤرخين بأن عليا قد ظل ممتنعا عن البيعة ستة أشهر ، يرجع بعضهم ذلك لمرض زوجته فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

فى حين أن البعض الآخر يقول بأن عليا قد أعطى بيعته بعد أربعين يوما بدليل أن خالد بن سعيد لقى عليا وعثمان بن عفان قبل أن يعطى بيعته فقال لهما : « يا أبا الحسن ، يا بنى عبد مناف ، أغلبتم عليها ؟ » ، يريد اثارة على وعثمان ضد أبى بكر ويحرضهما على منازعته فى أمر الخلافة ٠ فأجابه على بقوله : « فعالية ترى أم خلافة » ٠٠ ولقد ذكر بأن عليا والزبير قد قالا : « فأغفينا الا لأنا أخرنا عن المشورة وانا نرى أبا بكر أحق الناس بها ، انه صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأناب عن الرسول صلى الله عليه وسلم للصلاة بالناس وهو حي ، ولو كان على يريد الخلافة لنفسه ـ كما يقال ـ فلماذا رفض أن يطلبها لنفسه من رسول الله كما طلب منه العباس أن يفعل ؟ » ٠

أهل الحل والعقد : ـ

أهل الحل والعقد ترتيب دستورى ابتكره علماء السياسة الشرعية الشرعية المسلمون ، ولقد سماهم الماوردى وغيره أيضا أهل الاختيار ، فهؤلاء هم الذين يتولون أمر الاختيار بعد البحث ، ويوجبون العقد وهم المسئولون عن اتهامه وانقاذه ، وهم يفعلون ذلك نيابة عن الآمة كلها ٠٠ فأهل الحل والعقد هم أصحاب الرأى والعلم وموضع الثقة من طبقات الأمة المختلفة ، لم يكن هناك فرق بينهم وبين أعضاء المجالس النيابية فى النظم الدستورية الحديثة ٠

ولقد ذهب بعض العلماء الى اشتراط شروط لا بد من توافرها فيمن ببعيته تنعقد الخلافة : ـ

الشرط الأول ـ العدالة الجامعة لشروطها ٠

الشرط الثاني - العلم الذى يمكنه من معرفة من يستحق الامامة وتتوافر فيه شروطها ، وكذلك ادراك للوضع السياسى القائم ٠

الشرط الثالث - الراى والحكمة المؤديان الى اختيار من هو للامامة أصلح وبتدبير المصالح أقوم وأعرف ٠

فأهل الحل والعقد يبدون رأيهم فى اختيار الامام ، كما أن الامام يستشيرهم بعد توليه الحكم فى قواعد سياسته وقراراته العامة ، فلقد قال تعالى : « **وشاورهم فى الأمر** » ، وكما ذكرنا من قبل فان الرسول صلى الله عليه وسلم كان يشاور أصحابه فى كثير من الأمور ، ولقد كان أبو بكر الصديق وعمر هما أكثر من ستشارهم الرسول لكريم صلى الله عليه وسلم ، وقد قال لهما : « لو اجتمعتما على أمر ما خالفتكما » ٠

وهناك اختلاف حول عدد أهل الحل والعقد « وقوع الخلاف » فى تحديد العدد الذى به تنعقد الخلافة ، لأن البيعة ابتداء فرض كفاية اذا قام به البعض سقط الاثم عن بقية المسلمين ٠

وهذه بعض الاراء : -

١ - ذكر أبو بكر الصديق ان الامامة لا تنعقد الا باجماع الآمة ٠

٢ - أما القلانسى ومن تبعه فيرون بأن الامامة تنعقد بعلماء الأمة الذين يحضرون الى مكان الامام ٠

٣ - وهناك رأى يرى بأن أقل عدد تنعقد به الخلافة خمسة يجتمعون على عقدها أو تعقد لأحدهم برضاء الأربعة ٠

٤ - وهناك رأى يرى أن البيعة تعقد بمبايعة أربعون وذلك قياسا على العدد الذى تصح به صلاة الجمعة ٠ وعلى ذلك فالقصد هو أن يقوم بتنصيب الخليفة جمع يتحقق بتنصيبهم له رضا المسلمين ٠

● ● ●

اسلوب ابو بكر الصديق في الحكم : -

لما تمت البيعة لأبى بكر الصديق خاطبه رجل بقوله : « يا خليفة الله » ولكن استنكر أبو بكر قوله ، وقال له : « لست بخليفة الله ، ولكنى خليفة رسول الله » . وهو بهذا القول قد أنكر المبادىء التى سادت العالم دهرا طويلا حين كان الملوك يزعمون بأنهم خلفاء الله على الأرض ، وأنهم أناس مقدسون . ولقد كانت هذه المبادىء موجودة فى أوروبا ابان العصور الوسطى حين كان الملوك يرون بأن حكمهم حكم الله لا مرد له . ولقد تولي أبو بكر قيادة المسلمين باختيارهم ورضاهم ولم يكن يرى لنفسه حقا عليهم الا من حدود كتاب الله وسنة نبيه . ويبدو ذلك واضحا من قوله عندما بايعه عامة الناس « أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فان عصيته فلا طاعة لى عليكم » .

ولقد أوسع من نطاق الشورى حين رأى أن سائر الذين بقوا على اسلامهم قد شاركوا فى حروب الردة ، ومن العدل أن يكون لهم ما لأهل المدينة ، من حق فى الرأى والمشورة ، ولهذا دعا أهل مكة يشاورهم في غزو الشام . ولقد رفض تفضيل السابقين الى الاسلام بقوله : « انما أسلموا لله ووجب أجرهم عليه ، بوفيهم ذلك فى الآخرة ، وانما هذه الدنيا بلاغ » (١) .

ولقد كانت حكومة أبى بكر قائمة على الشورى فى منشئها وفى نزعتها ، فلقد بويع بيعة عامة لصفاته الذاتية ومكانته من رسول الله ، وهو لم يطلب البيعة لنفسه ، فلقد رشح لها عمر بن الخطاب ، وأبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنهما .. وكان يعتمد على الشورى فى كل شئون الحكم ، فهو لم يبت فى أمر قبل أن يشاور الناس فيه ، ولم يكن يميز بين طائفة واخرى ..

مرض أبو بكر الصديق بالحمى وتوفى فى مساء الاثنين الثانى والعشرين

---

(١) محمد حسين هيكل ، مرجع سابق ، ص ٣٣٤ .

من جمادى الآخرة سنة ثلاثة عشر من الهجرة ، فكانت مدة خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليالى ..

وكانت وصيته لعائشة وهو يحتضر : « يا عائشة انظرى الى اللقحة التى كنا نشرب من لبنها ، والجفنة التى كنا نصطبح فيها ، والقطيفة التى كنا نلبسها ، فان كنا نستنفع بذلك حين كنا نلى أمر المسلمين فاذا مت فارديه الى عمر » .. فلما مات أبو بكر رضى الله عنه أرسلت به الى عمر فقال : « رحمك الله يا أبا بكر ، لقد أتعبت من جاء بعدك » .

الفكر العربى

- أصول الفكر العربى
- الطهطاوى
- محمد عبده
- رشيد رضا
- نظرية القومية العربية

يعد الدين الاسلامى عماد الدولة الاسلامية والعربية ، وهناك عدة مظاهر اجتماعية للاسلام ، منها : الصلاة بشكل جماعى ، وتنظيم شريعة علاقة الانسان بالانسان وعلاقته بالأنظمة ، وفى هذا يقول الرسول «صلعم» ما يفيد أن الرسل الذين أرسلوا من قبله أرسلوا لشعوبهم ، أما محمد فقد أرسل للانسانية ..

ويعد كل المسلمون ـ بغض النظر عن ثقافتهم وجنسهم ـ أعضاء فى الآمة الاسلامية ولهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات .

ولا يدخل المسيحيون واليهود فى الامة الاسلامية ولكنهم يوصفوا بأنهم « أهل الكتاب » وهناك عدة أصول للفكر العربى نذكر منها : ـ

الأصول العربية : ـ

قال غوستاف لوبون ان ما أنجزه العرب من ابداع وحضارة لم يكن ليقوم بغتة وانما لا بد وأن يقف وراءهم تاريخ طويل وتدرج فى سلم الرقى .

ويذكر فيليب حتة فى كتابه « تاريخ العرب » ان الهجرة العربية الأولى يعود تاريخها الى حوالى ٣٥٠٠ ق.م وكانت فى شقين ، شق ذهب الى سيناء ومصر ، وشق آخر ذهب الى دجلة والفرات ، وهؤلاء هم البابليون ، وأعقبت الهجرة الأولى هجرة ثانية « حوالى منتصف الألف الثالث ق.م » وضمت الكنعانيين والعموريين ، حيث استقر العموريون فى سورية والكنعانيون فى فلسطين والفينيقيون فى لبنان .

أى أن العرب أقاموا حضارة ما بين النهرين ، وحضارة وادى النيل ، وتوصلوا الى اقامة شريعة حمورابى ، وهى أقدم شريعة ظهرت فى العالم .

وأدى التعصب القبلي الي وجود الغزو وقيم الالتزام والوفاء بالوعـــود والعهود وعدم قبول الضيم ٠٠ ولم تستطع الجزيرة العربية قبل الاسلام أن تقيم نظاما سياسيا يضم بقاعها المختلفة ، فظهرت عدة دول فى الشمال والوسط والجنوب ٠٠ وبرز دور كبار السن فى القبيلة « المجلس القبلى » ، وأصـبح الرئيس يتسم برجاحة العقل والشجاعة والاقدام والتضحية والســلطة كان يمارسها رئيس القبيلة ٠

الأصـــــول الساسانية : -

تفاعل العرب مع الحضارة الساسانية ، ولم يكن الحكم عند الفرس قبليا أو اقليميا ولكنه كان ملكيا والملك شاهنشاه أى ملك الملوك ٠

والنظـــام الساسانى كان يقوم على الحكم الدكتاتورى المطلق ، والحكم الساسانى يتميز بتمركز السلطة فى يد الحاكم ، والحكم محصور فى قلة من الناس ، وهى سلالة الملوك ، والرئيس لا بد أن ينتمى الى سلالة ملكية ، ولا حول ولا قوة للمرؤسين ٠

الأصول اليونانية : -

يقول محمد حسين هيكل : ان مهد الحضارة الانسان الأول فى مصر أو فى فينيقيا أو فى أشور كان متصلا بالبحر الأبيض المتوسط ، وان مصر كانت أول المراكز التى صدرت الحضارة الأولى الى اليونان ٠

وأخطـــأ الكتاب حين قالوا أن دور العرب الحضارى هو دور نقل للتراث اليونانى لا أكثر ولا أقل ، وقال لوبون أن العرب أنجزوا فى ثلاثة أو أربعـــة قرون من الاكتشافات ما يزيد عـــلى ما حققه الغرب فى زمن أطـــول من ذلك كثيرا ، وكان تراث اليونان قد انتقل الى البيزنطيين الذين لم يستفيدوا منه لزمن طويل ، ولما آل الى العرب حولوه الى غير ما كان عليه فخلقاه ورثتهـــم مخلوقا خلقا آخر

ولميز النظام اليوناني باستقلال المقاطعات ، أو المدن الصغيرة ، الأمر الذى انعكس على نزعة الفرد نحو الاستقلال ٠

ويشير التـــاريخ الى أن اليونانيين كانوا قد أخذوا بعض أفكارهم من الشرق نتيجة احتكاكهم بالبابليين والكلدانيين والمصريين القدماء ٠

ويذكر « ويبر » أن أفلاطـــون فى محاورة « طيماوس » Tumaeuss يتكلم على لسان كاهن مصرى يخاطب اليونان بلغة ممثل لشعب عال فى ثقافته متطور فى فكره يتكلم الى شعب متأخر قائلا : « انكم يا معشر اليونان دائمـا اطفال بالنسبة لنا وليس بينكم شعب عجوز فى المعـــرفة ، انكم صـــغار فى عقـــولكم » ٠

ولم يكن هناك تأثير واضح للفكر اليونانى على العرب ٠

واختلف العرب مع اليونان فى تفضيلهم لأنفسهم على الاقوام الاخرى الذين كانوا يعتبرونهم أقواما متوحشة ، فالاسلام قائم على أساس لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى ٠

وبينما لا يخضع أفلاطون لشريعة ، فى حين نجد الفارابى والغزالى رأوا أن القانون أساس لكل دولة ويخضع له الحاكمون والمحكومون ٠

واتفق الفكر العربى الاسلامى واليونانى الفى عبر عنه أرسطو فى ضرورة قيام الحكم على الرضا والمشورة ٠

وأكد أفلاطون على الطبقات ٠

ولم يقر الفكر العربى الاسلامى الطبقية ٠

الأصول البيزنطية : ـ

ظهـــرت امبراطورية بيزنطة ، أو الامبراطورية الرومانية الشرقية ، على مسرح التاريخ بعد انقسام روما فى القرن الرابع الميلادى ، واستمرت هـــذه

الامبراطورية زهاء عشرة قرون ، وأخذت الكثير من أفكار الامبراطورية الرومانية الا أن بيئتها كانت شرقية وأغلب بقاعها آسيوية وعاصمتها بيزنطة ، التى اتحدت معالمها مع أسطنبول • وقد ضحت هذه الامبرارطورية بمبادىء الحرية فى سبيل مبادىء الامبراطورية المتسلطة ، واحتك العرب والمسلمون بهذه الامبراطورية •

ويقوم النظام البيزنطى على الدكتاتورية المطلقة ، وقد كان لاحتكاك بيزنطة بالشرق الساسانى بعض التأثير فى حياة الامبراطورية مثل مظاهر الأبهة والفخامة •• ولذلك فان الاباطرة البيزنطيين وضعوا أنفسهم فوق البشر ، ونظروا الى الرعاة وكأنهم عبيد لهم •

وكانت السلطة مركزة فى يد الامبراطورية ، وقد زادت المسيحية من سلطات الامبراطور ، وصار الامبراطور ظل الله ونائبه على الأرض •

أما المجتمع العربى فهو مجتمع قبلى وأقليمى •

ويتميز المجتمع القبلى بالبساطة فى العيش والعمل والتنظيم ، والمروءة ومحاسبة النفس وحسن معاملة المغلوب ، وظاهرة الولاء للجماعة وروح المشورة وتبادل الرأى بين القوم ، واللجوء الى التحكيم عند ظهور الخلاف بين الأفراد والقبائل •

كما برزت العصبية السياسية ، أى رابطة الدم ، وكانت الدافع الأول فى تكوين الشعور بالولاء للقبيلة الوحدة ، وبالتالى أصبحت الدولة القبلية هى الدولة المثلى ، كما ظهرت النزعة الى الحرية السياسية والنزعة الى الحق والعدل والمثل الأعلى فى القيادة هو خادم القوم سيدهم ، والكرامة الشخصية ورئيس القبيلة يتميز بالحكمة والتبصر ، ومجلس القبيلة هو الهيئة التى تشارك رئيس القبيلة فى تسيير شئون القبيلة ، وقرارات مجلس القبيلة غالبا ما تتخذ باجماع الأفراد •

• • •

« نماذج من الفكر الغربى »

الطهطـــــاوى

فى عام ١٨٦٠ م ، وجدت جماعات من الرسميين والضباط والمدرســـين ، يدركون أهمية تحسين بنيان الامبراطورية العثمانية ، واقتنعوا بان هذا من غير الممكن تحقيقه الا باستعادة أشكال المجتمع الاوروبى ٠

وكان كجماعة الاصلاح فى القسطنطينية تأثير فى كل أنحاء الامبراطورية وفى مصر شغل بعض الرجال الذين حصلوا على تعليم فرنسى مناصب هامة ،

وكان لطلبة البعثات التبشيرية فى سورية ولبنان تأثير غير مباشر ٠

وفى القسطنطينية لمس هذه الأفكار عدد من الكتاب ، وذلك فى النصــف الأول من القرن ١٩ مثل صادق رفعت باشا ، ووجدت كتابات تشرح الأخلاقيات الاجتماعية للاسلام ، وحاولت أن تبرز أهمية قيام مؤسسات حديثة بالشروط الاسلامية ، مع العودة الى روح الاسلام ٠

وابتداء من عام ١٨٦٠ م بدأت الصحافة التركية تثير هذه القضايا بشكل واضح ، وفى منتصف ١٨٦٠ م جاءت خطوات أخرى ، اذ عمل من أجل تنظيم جماعة سياسية برعاية عضو من الأسرة الخديوية فى مصر وهو مصطفى فاضل باشا ، وتكونت فى أسطنبول ثم تحركت الى باريس ٠

وأصـــدروا جريدة كان لها تأثير ، وعندما عادوا من المنفى ١٨٧١ م ، ثم حل الجماعة ٠ كما حاول رفاعة الطهطاوى أن يشرح ويبرر الفكر الاسلامى ٠

وهو من طهطا فى صعيد مصر ، وتلقى تعليما دينيا ٠

وفى عام ١٨١٧ م ذهب الطهطاوى للدراسة فى الأزهر ، ومن الذين أثروا

فيه الشيخ حسن العطار ، وكان للعطار دور في تأمين ارسال الطهطاوى ليكون اماما للبعثة التى أرسلها محمد على للدراسة فى أوروبا ٠

وبقى الطهطاوى فى باريس خمس سنوات ٠

ورغم أنه أرسل كامام الا أنه أقحم نفسه فى الدراسة فى فرنسا وعرف اللغة الفرنسية ومشاكل ترجمتها الى العربية ٠

وقرأ كتبا فى التاريخ القديم والفلسفة اليونانية ، والجغرافيا والحساب والمنطق ، وحياة نابليون وبعض الشعر الفرنسى بما فى ذلك راسين Racine والفكر الفرنسى فى القرن ١٨ مثل فولتير وروسو ومونتسكيو ٠

وعندما عاد الطهطاوى الى مصر أصدر وصفا لاقامته فى باريس « تخليص الابريز فى تلخيص باريس » ، وحصل على شهرة كبيرة ، وترجم الى اللغة التركية ٠٠

وقال فيه ان الرجال فى فرنسا عبيد للنساء ، كما تناول النظافة فى فرنسا ، والتعليم الطويل للأطفال ، وحب العمل ، ونبذ الكسل ، والاطلاع الثقافى ٠

وعمل الطهطاوى على اقامة مدرسة الألسن فى مصر ، وفى عام ١٨٣٦ م ٠ عين عميدا لهما ، وعمل مفتشا بالمدارس ، ورئيسا لتحرير جريدة الوقائع المصرية ٠

وفى عام ١٨٥٠ م أرسل الطهطاوى لفتح مدرسة فى الخرطوم ، ويبدو أن الخديوى عباس لم يكن راضيا عنه ولذلك فانه فى عام ١٨٥١ م أقفلت مدرسة الألسن ٠ واعتبر وجوده فى الخرطوم بمثابة نفى ٠

وعندما خلف سعيد عباس فى عام ١٨٥٤ م ، سمح للطهطاوى بالعودة الى القاهرة ٠٠

وعندما خلف اسماعيل سعيد بقى وضع الطهطاوى على ما هو عليه ٠

وافكار الطهطاوى عن المجتمع والدولة ليست مجرد اعادة ترديد لوجهة نظر تقليدية ، وليست مجرد انعكاس بسيط لأفكار تعلمها فى باريس ، فهو يستشهد بأقوال الرسول والصحابة ، ومفاهيم السلطة السياسية التى تدخل فى اطار الفكر الاسلامى ، ولكنه يعطيها تطورا جديدا وذو مغزى ٠

ورأى الحاكم يملك سلطة تنفيذية مطلقة ، ولكن استعماله لها يجب أن يقترن باحترام القانون ، ويجب أن تكون الحكومة فى يد الشعب ـ وهذه الفكرة حصل عليها من فرنسا ٠ اذ أنه شهد ثورة ١٨٣٠ م فى فرنسا وأعطى وصف لها فى كتابه عن باريس ، ولكنها لا تتمشى مع مشاكل مصر ، اذ أن بلاده حكمتها أوتوقراطية مسلمة ٠

وشعر بالجميل لمحمد على الذى أرسله الى باريس وشعر باعجاب تجاه محمد على الذى حرر مصر من المماليك ووضعها على طريق التقدم ـ وموقف الطهطاوى كان معارضا لعباس ـ وميز الطهطاوى بين اربع حالات ـ أولا : الحكام ٠ ثانيا : رجال الدين والقانون ٠ ثالثا : الجنود ٠ رابعا : المهتمون بالنشاط الاقتصادى، وقد أعطى اهتماما خاصا بالفئة الكاتبة ولا سيما دورها فى الدولة ، فالحاكم يجب أن يحترم ويشرف بالعلماء ، ويجب أن يعاملهم كمساعدين له وذلك فى ممارسته لأعمال الحكم ٠٠

من الواضح أن هذه الفكرة تتمشى مع الشريعة ، وربما أن الطهطاوى وجد أن العلماء يشكلون المؤسسة الوحيدة التى من خلالها يمكن لسكان مصر الاصليون أن يقوموا بدور نشيط فى الشئون العامة ، ففى هذا الوقت تمت مجموعة متعلمة من العلماء ، وحيث أن باب الاجتهاد كان مقفولا ، وبالنسبة للجيل اللاحق كان من الأهمية أن يفتح باب الاجتهاد ، ولذلك فان الطهطاوى أخذ الخطوة الاولى فى هذا الاتجاه ، وقد رأى أن الشريعة الاسلامية يجب أن يعاد تفسيرها فى أطار الاحتياجات الحديثة ، واذا استطاع العلماء أن يفسروا

الشريعة فى اطار الاحتياجات الحديثة فانهم يجب أن يعرفوا ماهية العالم الحديث ، ويجب أن يدرسوا العلوم التى أنشأها العقل الانسانى ، فالعلماء يجب عليهم أن يأخذوا بالعلم الحديث .

وعندما يؤكد الطهطاوى على دور العلماء وأهمية أخذهم بالتعليم الحديث فانه فى هذا الصدد يوضح أن طبيعة المجتمع ووظيفة الحكومة تختلف عما كانت فى الماضى ، وهو فى هذا الصدد قبل من حيث المبدأ الفكرة الاسلامية المتعلقة بالاستقرار السياسى وبوظيفة الحكومة التي تتمثل فى تنظيم شئون المجتمع وفقا لأحكام الشريعة .

وفى كتابه عن باريس فانه يورد مظهر من مظاهر الشخصية الفرنسية ، وهو رغبة كل انسان أن يخطو خطوة للأمام من التى خطاها أجداده « كل واحد بعد سيدا لحرفة معينة ويرغب فى أن يخترع شيئا جديدا لم يكن معروفا من قبل ، أو يكمل شيئا ما قد عمل على اختراع من قبل » .

وفى نفس الطريق نجده فى المناهج يفترض أن المجتمع له غرضان - الاول أن يطيع ارادة الله ، وفى نفس الوقت يحقق مغزى وجوده فى العالم ، وحتى الآن ليس هناك جديد ولكن الجديد المعنى الذى أعطاه للرفاهية Welfare فهى تتميز بالتقدم كما حدث فى أوروبا خلال القرن ١٨ وفى هذا الصدد فان الرفاهية لها أساسان - الاول : هو تدريب الشخصية على القيم الدينية والانسانية . ثانيا : الانشطة الاقتصادية التى تؤدى الى تحقيق الثروة وتحسن الظروف ، وحيث أنه يكتب عن مصر فانه شرح أهمية التغيير الاقتصادى فى مصر والتقدم فى الزراعة ، كما تعرض لطبيعة الحياة الاقتصادية فى دولة الرفاهية . ولذلك فان دولة الرفاهية العامة تعتمد على طبيعة الحكومة وان الحكام الصالحين لمصر كانوا مهتمين بالزراعة ، ويقدم وصفا تفصيليا لسياسة محمد على الزراعية .

ورأى أن التعليم يجب أن يرتبط بطبيعة ومشاكل المجتمع ، ويجب أن

يهدف الى تغذية عقول الصغار ومشاعرهم ، ويجب أن يكون التعليم الابتدائى الزامى ، وكذلك التعليم الثانوى يجب أن يكون من نوعية عالية ، ويجب أن يتم تعليم البنات مثل الأولاد وعلى قدم المساواة .. ويبدو أنه فى هذا الصدد كان يعكس سياسة الخديوى اسماعيل ، وان هدف التعليم يجب أن يعمل على تكوين الشخصية وليس حشو ذهن الطالب بمجموعة من المعارف ..

وكان الطهطاوى يقصد بالوطن مصر ، وان كنا نجد فى فكره عن العروبة ولكنها تنتمى الى الماضى أكثر مما تنتمى الى الجديد ، اذ انه يمتدح ويدافع عن دور العرب في تاريخ الاسلام عندما يتحدث عن الوطنية .. ومصر بالنسبة له شىء مميز وأنها تتسم بالاستمرارية التاريخية ، فمصر هى حفيـــدة أرض الفراعنة ، وكان يأخذ فى الاعتبار أمجاد مصر القديمة .. وقد كتب عدة أشعار يمتدح فيها الفراعنة ، وقد كان فى فرنسا ابان احتلال فرنسا للجزائر وكتب عن ذلك فى كتابه عن باريس ، ولكن فى تفكيره لم يكن هناك شعور بأن وجود أوروبا يشكل خطـــرا سياسيا ، وقد عملت فرنســـا وأوروبا ليس من أجل السلطة السياسية والتوسع ، بل من أجل العلم والتقـــدم المادى ، وأن مصر يجب أن تتبنى العلوم الحديثة والاختراعات الاوروبية ، ويمكن أن تفعل ذلك دون خطر على دينها ، لأن العلوم التى تنتشر في أوروبا الآن كانت فى البداية علوم اسلامية ، فأوروبا أخذت من العرب ، ومصر الآن تسترد هذا من أوروبا ، ولذلك فانه دعا الى التفاعل مع الأجانب ومعاملتهم بشكل مـــلائم ، ويجب أن يتم تشجيعهم على الاقامة فى مصر ويعلموا المصريين هـــذه العلوم ، ويرى فى محمد على وأتباعه أنهم يحاولون أن يستعيدوا عظمة مصر .

« محمـــد عبـــده »

يعد من تلاميذ الأفغانى ، وجذوره مصرية ، ولد عام ١٨٤٩ م فى احدى قرى الدلتا ، وربما ينتمي الى أصل تركى ، وأمه من أسرة عربيـــة تنتمى فى أجدادها الى أحد أبطال الاسلام ، ودرس في الجامع الاحمدى في طنطا ، ثـم الجامع الازهر فى القاهرة من ١٨٦٩ - ١٨٧٧ م ٠

ونظرا لتأثير الأفغانى عليه بدأ محمد عبده فى دراســـة الفلسفة ، وكتب مقالات فى الاهرام ابتداء من ١٨٧٧ ، ودرس فى الازهر ودار العلماء ٠

وكان لمحمـــد عبده دور فى مقاومة الاستبداد عام ١٨٨٣ م ، ولذلك نفى الخديوى توفيق الافغانى من مصر ، وأمر محمد عبده بالعودة الى قريته ، ولكن فى عام ١٨٨٠ عاد الى القاهرة ، وقام رياض باشا رئيس الوزراء بتعيينـــه محررا ، ثم رئيسا لتحرير الوقائع المصرية ٠

وبعد الاحتلال البريطانى لمصر تم القبض عليه ، وسجن لفترة ، وأسيئت معاملتـــه ٠٠

وقد أرسل الى المنفى لمدة ثلاث سنوات ، وذهب أولا الى بيروت ، ثم لحق بالافغانى فى باريس ، وقاما بنشر العروة الوثقى هناك ٠

وزار لندن فى عام ١٨٨٤ م لمناقشة مشاكل مصر والسودان ، وعندما تم وقف اصـــدار العروة الوثقى رحل الى تونس ، ودخل مصر متنكرا آمـــلا الوصول من خلالها الى المهدى فى السودان ، ولم يفلح فى ذلك ، وعاد محمد عبده الى بيروت وبقى هناك ٣ سنوات كمعلم فى مدرسة اسلامية وفى ١٨٨٨ سمح له بالعودة الى مصر من قبل الخديوى وعمل قاضيا ٠

وفى عام ١٨٩٩ م عين مفتيا لمصر ٠

وفى نفس العام عين عضوا فى المجلس التشريعى ، وهو جهـــاز من ٣٠ عضوا وتم انشاؤه عام ١٨٨٣ وتوفاه الله فى ١٩٠٥ ٠

ونقطة البداية في فكر محمد عبده - مثل الافغاني - هي مشكلة الانحطاط الداخلي والحاجة الى اعادة البعث ، وكان على وعي مثل الافغاني بالانحطاط الذي هو في الواقع غريب عن المجتمعات الاسلامية .

ووفقا للمفاهيم الاسلامية المحافظة راى ان محمدا أرسل ليس فقط ليخلص البشرية من الاستبداد الفردي ، بل ليمنشىء مجتمعا صحيحا واعية مراعاة الرسالة الإسلامية وتساءل كيف يتم تخطي الهوة القائمة بين ما يجب أن يكون عليه المجتمع الاسلامي وعما اصبح فيه ؟ كيف يمكن للمجتمع الاسلامي أن يكون مجتمعا حقا بمعنى الكلمة .

وفي الوقت الذي كان فيه محمد عبده يقدم افكاره كانت مصر مثل الامبراطورية العثمانية كانت في مرحلة الجيل الثاني من التغيير ففي عهد اسماعيل تم اتخاذ انماط جديدة من القوانين وانشئت مدارس على النمط الجديد ، وكان هناك حديث عن مؤسسات سياسية جديدة ، ولم يأسف عبده على هذه التغيرات ، فمنذ ١٨٧٠ حتى نهاية حياته بقي مقتنعا أن الخط العام للتقدم يعد حتميا ولمصلحة مصر وان الخطر يأتي من تزايد العلمانية في المجتمع .

وقال ان القوانين تختلف من دولة الى دولة ، ولتكون فعالة يجب أن تكون هناك علاقة مع ظروف البلد ، وعبده معجب بانجازات أوربا الحديثة ، ولكن لا يعتقد ان من الممكن نقل هذه القوانين والمؤسسات الى مصر ، فالقوانين التي نبتت في بيئة اخرى لن تكون ملائمة لغيرها فالقوانين الحديثة التي اتت من أوربا ليست قوانين على الاطلاق أنه لا يوجد شخص يفهمها ولذلك لا يوجد أي شخص يستطيع أن يحترمها أو يطيعها . وهنا تصبح مصر من أسوأ المجتمعات وبدو نقوانين .

وكان فى مصر المدارس الدينية على نمط الازهر ، والمدارس الحديثة على النمط الاوربى ، وترتب على ذلك وجود طريقتين من المتعلمين فى مصر ، مما اثر على الحياة السياسية والاجتماعية وكان محمد عبده على اقتناع أن الأمة الاسلامية لا يمكن أن تصبح قوية اذا لم تحصل على العلوم من أوروبا فهذه العلوم مفتاح لانشطتها العقلية ، ويتم ذلك دون التخلى عن الاسلام ، لان الاسلام أوصى بقبول ما يؤدى اليه العقل .

والوحدة عنده ضرورية للحياة السياسية ويجب أن تكو نهناك علاقات طبيعية بين ذوى الاديان المختلفة .

●●●

« رشيد رضا » (١٨٦٥ - ١٩٣٥)

ولد فى قرية طرابلس ، تعلم فى مدرسة قرآنية محلية وقابل عبده عندما زار طرابلس ، وهكذا يعد أحد تلاميذ محمد عبده ٠

فى ١٨٩٧ ترك سورية وتوجه الى القاهرة ٠ وفى العام التالى اصدر المنار فى القاهرة واستمر فى اصدار المنار بشكل أو بأخر حتى مات فى ١٩٣٥ ٠

وشارك فى السياسات الاسلامية وحضر المؤتمر الاسلامى فى مكة عام ١٩٢٦ والقدس ١٩٣١ وهو كسورى عاش على هامش الحياة السياسية المصرية وعلاقته بالخديوى عباس حلمى الثانى كانت سيئة ومثل محمد عبده انتقد محمد على ٠

وشارك فى نضال سورية السياسى ، ويمكن القول أن افكاره تبدأ بالسؤال التالى :

لماذا تعد الدول الاسلامية متخلفة فى كل مظهر من مظاهر المدنية ؟ وقال اذا فهمت تعاليم الاسلام واطيعت فانها ستؤدى الى النجاح ٠

واذا لم تفهم ولم تطع فسينجم عن ذلك الضعف والانحطاط والوحشية

لقد كانت الامة الاسلامية قلب مدنية العالم عندما تمسك المسلمون بالاسلام ، أما اليوم فان المسلمين اكثر تخلفا عن غير المسلمين ، ولذلك دعا بالعودة الى القرآن ٠

كما بين اهمية وحدة المسلمين واهمية الاقتداء بالرسول والسلف ٠

واذا كان رشيد رضا قد أكد على الطبيعة غير المتغيرة للاسلام ، فان هذا لا يعنى أن فكره كان جامدا ، فهو يميز بين ما يخص جوهر الاسلام وما لا يخصه ويرى أن المرأة المسلمة عليها أن تقوم بدور فى الاسلام كما كانت تقوم بدور فى بداية الاسلام ٠

وعاش رشيد رضا في اطار الخلافة العثمانية وقد دعا الى اقامة حكومة اسلامية ، وان موقع الاقليات فى الدولة الاسلامية سيكون أفضل من وضعهم فى دولة علمانية ، لان الدولة الاسلامية تقوم على العدالة والقانون الذى يعطى حقوقا وحريات للمسيحيين واليهود .

القومية العربية

« يا أيها الناس ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ٠٠ انما هى اللسان من تكلم العربية فهو عربى » حديث شريف ٠

« العرب مدركون للغتهم وفخورون بها ، والقرآن بالعربية ، والنبى عربى » ٠

قال ابراهيم باشا ابن محمد على

« انا لست تركيا ، لقد اتيت الى مصر عندما كنت طفلا ومنذ ذلك الوقت ، فان شمس مصر قد غيرت دمى وجعلته كله عربيا »

لم تظهر القومية العربية كحركة لها اهداف سياسية حتى نهاية القرن ١٩ ، وحتى ذلك الوقت كانت هناك حركات معادية للامبراطورية العثمانية فى الامبراطورية ، وكان ذلك فى عهد السلطان عبد الحميد ، وكان من بين مستشارى السلطان عدد من العرب مثل ابو الهدى ، وعزت باشا سكرتيره ومستشاره السياسى ومن المحتمل أن اغلبية العرب ولاسيما فى المناطق السورية لم يكونوا راضين عن حكمه ، فبالاضافة الى الاسباب الدينية ، حصلت المحافظات العربية على فائدة مادية من انشاء المدارس والسكك الحديدية ٠

وعلى الجانب الاخر كان هناك فريق يرى أن الامبراطورية يمكن المحافظة عليها وذلك بتحويلها الى ملكية دستورية ذات حقوق متساوية للمسلمين وغير المسلمين والاتراك وغير الاتراك وعبر عن هذه الفكرة ابتداء من العقد السابع من القرن الـ ١٩ والعقد الثامن من نفس القرن ، وانتشرت بين الشباب العثمانى فى باريس ولندن بالاضافة الى الرسميين المصلحين بقيادة مدحت باشا الذى قام بانقلاب ١٨٧٥ ، وحاول اقامة نظام دستورى وان كان فشل فى ذلك ، وفرض الحكم المطلق للسلطان ولذلك تحطمت المعارضة المنظمة ، وظهرت الجماعات

انسرية باستثناء مجموعة التقدم والاتحاد التى تأسست ١٨٨٩ من قبل الطلبة فى المدارس العسكرية ٠

وقد تم حلها فى ١٨٩٦ وان كانت قويت وتم التعبير عنها من قبل مجموعة من المنفيين فى باريس واوربا بقيادة احمد رضا ، واصبحت سارية المفعول فى ١٨٩٩ من قبل زوج اخت السلطان محمد باشا وابنيه صباح الدين ، ونسب اللـــه ٠٠

وأصدروا دوريات بالفرنسية والتركية ونظموا مؤتمرين لليبراليين العثمانيين فى ١٩٠٢ ، ١٩٠٧ للعمل ضد أوتوقراطية السلطان ٠

وقد شارك العرب فى هذه الحركة ولكن كان دور المسيحيين السوريين فيها أكبر من دور المسلمين السوريين ٠

وفى العقدين السابع والثامن من القرن ١٩ ، كانت سنوات التعبير الحر وصدرت دوريات عربية فى بيروت تعبر عن افكار مماثلة لافكار الشباب العثمانى ومدحت باشا ، وان كانوا قد قدموا طابعا علمانيا ، وهـــذا الذى ميز الكتاب العثمانيين وهنا نذكر دور بطرس البستانى وعائلته ٠ ثم تحولت الصحافة اللبنانيـــة من بيروت الى القاهرة وكان الشريف حسين شريف مكة يواجه موقفـــا محرجا من جراء الحركة الوهابية ، وفتح مصر للحجاز ، وعندما عاد الاتراك فى ١٨٤٧ اخذوا من محمد على السيطرة التى فرضها على الشريف حسين ، وجعلوها اكثر قوة ، وفى العقد التاسع من القرن التاســـع عشر لم يستطع الشريف مقاومة مندوبى السلطان بالقوة ٠

وبدأ الشعور القومى يتخذ طابعـــا علمانيا ، ودعا بطرس البستانى الى الوحدة مع الوطن العثمانى كما دعا الى وجود الشعور المحلى ، فالامبراطورية وطننا ولكن بلادنا هى سورية ٠

ودعا بعض المسيحيين من دوائر البستانى فى المنشورات التى نشرت فى

بيروت دعوا شعب سورية للاتحاد ودعوا الى الحكم الذاتي لسورية وذلك بالاتحاد مع لبنان ، والاعتراف بالعربية كلغة رسمية وازالة القيود على حرية الرأى ٠

وقد يكون لهذه الحركة علاقات بمدحت باشا عندما كان حاكما لدمشق اذ اتهمه أعداءه بأنه يخطط لأن يجعل من سورية ذات حكم ذاتي مثل مصر ٠

وهذا الوعى المسيحي ساهمت فيه المدارس التبشيرية وبعد عشرين سنة اخرى ظهر ابراهيم اليازجي وهو الذى دعا العرب الى تذكر ماضيهم كما تحدث عن الكبرياء العربية لشعب سورية واعترض على ادعاء السلطان ان يكون خليفة واعتبر ذلك اغتصابا للحقوق العربية ٠

وربما أن جورجي زيدان هو الذى فعل أكثر من غيره وذلك بخلق وعى بالماضى العربى كما صدرت كتابات مسيحية لنجيب عزورى تقول أن الامة العربية تشمل المسيحيين والمسلمين ، والمسيحيون عرب بدرجة لا تقل عن المسلمين ، ويجب ان تكون هناك مسيحية عربية مع التهجم على افكار مصطفى كامل المؤيدة للدولة العثمانية والاسلامية ، وان الاتراك حطموا العرب ، وبدونهم أصبح العرب من بين الشعوب الاكثر تحضرا فى العالم ، وهم أحسن من الاتراك فى كل شىء حتى فى الجنود ، لان الانتصارات التركية ترجع الى المناضلين العرب ٠

وبدأت النخبة العربية تعارض الدولة العثمانية فى اطار النظام الدستورى وبالاتفاق مع دعاة اللامركزية العثمانية ، وفى ١٩١٢ أسس عدد من العرب الذين يعيشون فى القاهرة ولاسيما السوريون أسسوا حزبا يعبر عن ارادتهم وسمى بالحزب العثمانى للامركزية الادارية Ossmany party of Administrative Decentralization

وكان على اتصال بالليبراليين الاتراك وحتى مع عزت باشا السكرتير السابق للسلطان عبد الحميد والذى كان فى المنفى منذ ١٩٠٨ وكان لديه شبكة من

لجان الاصلاح فى المدن العربية العثمانية ، ولا سيما فى بيروت ، وكان أهدافه ادارية اكثر منها سياسية اذ دعا للاعتراف باللغة العربية كلغة رسمية ، وأن يكون معظم الرسميين المحليين من العرب ، وتستشار السلطات المحلية فيما يتعلق بتعيين الرسميين ، وتجرى الخدمة العسكرية بشكل محلى فى وقت السلم ، وتستخدم بعض العوائد المحلية فى قضاء الاحتياجات المحلية وان يكون لمجالس الولايات سلطات اكبر ٠

وقال الاتراك فيما بعد أن لهذه الحركات اهداف سرية تتمثل فى محاكاة النظام المصرى الخاص بالحكم الذاتى ٠

وفى ١٩١٣ نظم عدد من الافراد تابعين لهذا الحزب المؤتمر العربى فى باريس ، وحضره حوالى ٢٥ شخصا وكلهم سوريون بالمفهوم الواسع ماعدا اثنين من العراقيين وكان بعضهم من الطلبة والبعض الاخر من المقيمين فى باريس ، وبعضهم من القاهرة وبيروت ، وكانوا من المسلمين والمسيحيين ، ولقى ذلك تأييدا من الزعماء السياسيين فى القسطنطينية وبين جو المناقشة انه سادت روح القومية العربية المتواضعة ، وان كان هناك جو من التغريب Westernization

وقال المتحدثون فى الاجتماع « نحن العرب نريد اصلاح الامبراطورية لاننا نريد أن نشارك فى المدنية الحديثة وتطلب من أوروبا أن تقدم لنا يد المساعدة وتم استبعاد فكرة أن أوروبا تمثل خطرا ، وان كان هناك درجة من الولاء للامبراطورية ، وان تكون الامبراطورية قوية وأن درجة الولاء تعتمد على طريقة معاملتنا ، ويجب أن تكون الامبراطورية العثمانية ديمقراطية ، وبما أن الامبراطورية العثمانية متعددة القوميات فيجب أن تكون هناك درجة من الحرية لكل ولاية ٠

وبعد ثورة ١٩٠٨ انتشرت الجمعيات السرية ، مثل الجمعية الوطنية التى تأسست عام ١٩٠٩ من قبل ضباط الجيش وعلى رأسهم عزيز المصرى ،

وتكونت حركة الفتاة في باريس عام ١٩١٢ بواسطة عدد من الطلبة السوريين كما واسس عزيز المصري جمعية العهد ١٩١٤ وتكونت من ضباط الجيش مع وجود عناصر عراقية فيها وكان هدف هذه الحركات هو تحقيق الاستقلال وكانت حركاتهم معادية للاتراك .

ولقد كانت حرية التعبير والعمل بعد ١٩٠٨ ، وسياسة شباب الاتراك مشجعة على نمو القومية العربية ، وبدأ المسيحيون في سورية ولبنان يعبرون عن انفسهم ففي لبنان دعا اثنان من اسرة الخازن في ١٩١٠ الى استقلال لبنان .

كما أن فكرة استقلال سورية اصبح لديها دعاة ولاسيما في باريس حيث دعا اثنان من المسيحيين الى ذلك ، وهما شكري غانم ، وجورج سامنيه ، فالامة السورية عندهم تملك وحدة خلقتها الطبيعة وقواها التاريخ .

وفي اثناء الحرب العالمية الاولى اشترك كثير من اللبنانيين المسيحيين في خدمة القوات المسلحة الفرنسية .

وفي محاضرة استاذ عراقي هو عبد الرحمن اليزاز عن الاسلام والقومية العربية انكر فيها التعارض بين الاثنين وقال أن فكرة التناقض ترجع الى المفاهيم الغربية عن الاسلام والقومية وان العرب الذين قبلوا هذه الافكار ، يبدوا انهم تأثروا بالسيطرة الثقافية الغربية .

وهكذا ارتبط المسيحيون الغرب بالميراث الاسلامي العربي ، وفي هذا الصدد نذكر قسطنطين زريق ، وهو مسيحي ارثوذكسي ، من دمشق ، واستاذ في الجامعة الامريكية ببيروت ، اذ قال : اننا في حاجة الى القومية فهي شعور بالمسئولية الجماعية ، وهذا له صلة بالدين ، وبالنسبة للعرب فهذا الدين هو الاسلام .. وهذا قد يبدو مدهشا اذا أتى من مسيحي ، فمحمد منشيء العربية وموحد الشعب العربي ، وان التحديث يرتبط بتبني مؤسسات الغرب ، وهناك

سورى آخر هو ادموند رباط Edmond Rabbaty وهو من حلب ، وقام بدور بارز فى السياسة القومية ، والف كتابا عن الوحدة السورية والمستقبل العربى ، وحدد فيه طبيعة وحدود الأمة العربية ، وقال : « لا توجد أمة سورية ، ولكن توجد أمة عربية » ، كما أنه يدافع عن الأمة العربية المتمثلة فى روابط الدم والاصل ، لأن الأمة العربية حتى خارج شبه الجزيرة العربية قد تشكلت بواسطة الموجات المتتالية من الهجرة ، بالاضافة الى اللغة والدين ، فيرى أن الدين يقوم بدور يعتد به فى تكوين الأمم ، والتضامن الدينى من أسس التضامن القومى ، ويمهد الطريق للارتباط السياسى ، ويجمع البشر ضد الغزو الخارجى ، والاسلام هو الديانة التى قامت بهذا الدور فى التاريخ العربى .

ويرى « رباط » أن حدود الأمة العربية تتمثل فى البلاد التى تتحدث العربية فى آسيا ، وتشمل ٣ وحدات جغرافية وانسانية - العراق ، شبه الجزيرة العربية ، وفى مقدمة ذلك سورية ، وهى فى حد ذاتها وحدة حتى اذا لم تكون أمة منفصلة ولبنان جزء منها .. أما مصر فيرى أن لديها مشاعرها الوطنية الخاصة بها ، أما دول شمال أفريقيا الناطقة بالفرنسية فلا زالت فى المرحلة قبل القومية . ويرى « رباط » كما يرى « زريق » أن الاسلام هو الماضى العربى وليس المستقبل .

وهناك ساطع الحصرى ، وهو من أصل سورى من حلب ، فقد تربى فى القسطنطينية وتعلم كتركى أكثر مما هو عربى ، وشغل مناصب هامة فى وزارة التعليم العثمانى قبل انهيار الامبراطورية واشترك في الحكومات العربية بدمشق وأصبح وزير التعليم فى عهد فيصل ، وقام بدور كبير فى التفاوض مع سلطات الاحتلال الفرنسى ، وتبع فيصل الى العراق وشغل مناصب فى وزارة التعليم بالعراق ، وكان لديه دور فى انماء الوعى العربي بالعراق ، ونفي من البلاد بعد فشل انقلاب رشيد على ، وذهب الى بيروت ، وعمل فى الجامعة العربية بالقاهرة ، وكتب عدة مقالات عن القومية العربية .. وفى كتاباته يمكن أن نجد

نظرية خالصة للقومية ، نظرية ليست مشتقة فقط من الفكر الانجليزى والفرنسى ، ولكن نجد أصولها فى الفكر الالمانى أيضا ، فقد قرأ فخت : Fichte

ويرى ان القومية والوطنية الاقليمية والولاء للدولة تكون الجماعات السياسية ، ويعارض الحصرى أفكار المفكرين الانجليز والفرنسيين القائلة أن الأمة هى أى جماعة ترغب فى أن تكون أمة ، فهو يرى أن الأمة شىء يوجد بشكل واقعى ، وينتقد تعريف رينان للأمة القائل أن لديها ماضى مشترك وارادة مشتركة فى الحاضر ، ولديها قضايا مشتركة ، فالأمة العربية تتكون من كل من يتكلم العربية كلغة أصلية لا أكثر ولا أقل ، ولم يتجاهل الحصرى دور الدين وتأثيره على المشاعر الانسانية ، اذ أنه يساعد فى خلق نوع من الوحدة فى مشاعر الأفراد ، والديانة القومية لا تشكل أى مشكلة لأنها تقوى من الشعور الوطنى ، ولكن بالنسبة للديانات العالمية كالمسيحية والاسلام ، فان القضية أكثر تعقيدا ، وتتجه الى خلق مشاعر عالمية ومعادية للقومية .. وقال : عندما يرتبط الدين بلغة معينة ، فانه يقوى جذور هذه اللغة ويحافظ على تركيبها أكثر من أى عامل اجتماعى آخر ، ويبين التاريخ أنه عندما تنقسم الديانة الى عدة مذاهب فان قصد كل مذهب يتوقف على اللغة الخاصة به ، فاللغة تنتشر مع انتشار هذا المذهب وعلى سبيل المثال فان المذهب الارثوذكسى فى المسيحية يعتمد على النص الاغريقي للانجيل ، ولذلك كان الحصرى معارضا للقومية الاسلامية التى ترى أن العرب لديهم ولاء سياسى للأمة الاسلامية كلها ، سواء أكانت تتحدث العربية أم لا .. كما كان معارضا للاقليميين الذين يعتقدون أن هناك أمم منفصلة داخل العالم الذى يتحدث العربية .

وقال الحصرى : ان الطبيعة زودت مصر بمزايا تلزمها أن تقوم بدور الزعامة فى يقظة الأمة العربية ، اذ أن مصر تقع فى وسط الدول العربية ،

وتشكل أكبر دولة عربية، ولديها نصيب كبير من المدنية الحديثة ، كما أصبحت مركز الاشعاع الثقافى الرئيسى للبلاد العربية ، كما أنها أغنى الدول العربية والأكثر تقدما فى مؤسسات الدولة المعاصرة ٠

ودخل فى نقاش ضد دعاة القومية المصرية من أمثال لطفى السيد وطه حسين ، وبعد قيام جامعة الدول العربية عام ١٩٤٥ م ٠ أصبح الحصرى مديرا لمعهد الدراسات العربية التابع للجامعة ٠

مراجـــع مختـــــارة

- Curtis, Michael, *The Great Political Theories : from Plato and Aristotle to Locke and Montesquieu, Vol. 1*, New York; Avon, 1961.

- Curtis, Michael, *The Great Political Theories : A Comprehensive Selection of the crucial Ideas in Political philosophy from Burke, Rousseau and Kant to Modern Times*, Vol. 2, New York, Avon, 1962.

- Dunning, W. A., *A History of Political Theories, Ancient and Medieval*, Allahabad, Central Books Depot, 1966.

- Barker, Ernest, *Greek Political Theory; Plato and his predecessors*, London : Methuen and Co. Ltd., 1960.

- Green, E. C., Jean - Jacques Rousseau London, 1955.

- Schinz, *A., La Pensée de Jean Jacques Rousseau*, Paris, 1929.

- Cone, C. B., *Burke and the Nature of politics*, Kentucky, Lexington, 1957.

- Albee, E., A History of English Utilitarianism, New York, 1962.

- Laski, H. J., *Political thought from locke to Bentham*, London, 1920.

- Hook, S., *Towards the understanding of Karl Marx*, New York, 1973.

- Rubel, M., Karl Marx, *Essai de philosophie intellectuelle*, Paris, 1957.

- Tucker. R. C., *Philosophy and myth in Karl Marx*, New

- Albert Hourani,
Arabic Thought in the Liberal Age, 1788-1939, London : Oxford University Press, 1970

- جورج هـ • سباين ، « تطور الفكر السياسى » الكتاب الأول ، ترجمة حسن جلال العروسى ، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٣ •
- جورج هـ • سباين ، « تطور الفكر السياسى » الكتاب الثانى ، ترجمة حسن جلال ، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٤ •
- د• محمد سليم العوا ، فى النظام السياسى للدولة الاسلامية ، القاهرة : المكتب المصرى الحديث ، سبتمبر ١٩٧٥ •
- د• محمد طه بدوى « أمهات الأفكار السياسية الحديثة وصداها فى نظم الحكم » ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٨ •
- د• محمد البهى : « الفكر السياسى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى » القاهرة ، مكتبة وهبة ، ١٩٥٩ •
- أنور الجندى : « معالم الفكر العربى المعاصر » ، القاهرة ، مطبعة الرسالة ، ١٩٦١ •
- ساطع الحصرى : « ما هى القومية ؟ » بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٥٩
- عبد الكريم الخطيب : « الخلافة والامامة » ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٦٣ •
- محمد ضياء الدين الريس : « النظريات السياسية الاسلامية » ، القاهرة ، الانجلو المصرية ، ١٩٦٠ •
- عباس محمود العقاد : « أثر العرب فى الحضارة الاوروبية » ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٠ •
- عبد الرحمن الكواكبى : « أم القرى » ، حلب ، ١٩٥٥ •
- سيد قطب : « العدالة الاجتماعية فى الاسلام » ، دار احياء الكتب العربية ، ١٩٥٨ •

- د٠ عبد الحليم محمود : التفكير الفلسفى فى الاسلام ، القاهرة ، الانجلو المصرية ، ١٩٦٤ ٠
- د٠ فاضل زكى محمد : « الفكر السياسى العربى الاسلامى بين ماضيه وحاضره » منشورات وزارة الاعلام - الجمهورية العراقية ، الطبعة الثانية - دار الحرية للطباعة - بغداد ، ١٩٧٦ ٠
- د٠ حسن شحاته سعفان : « أساطين الفكر السياسى والمدارس السياسية » القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٦ ٠
- ابو الأعلى المودودى : « الحكومة الاسلامية » ، القاهرة ، المختار الاسلامى للطباعة والنشر ، ١٩٧٧ ٠
- أحمد شوقى : « الحرية السياسية فى الاسلام » ، الكويت ، مكتبة دار القلم ، ١٩٧٣ ٠
- توفيق سلطان اليوزيكى : « دراسات فى النظم العربية والاسلامية » ، بغداد ، المكتبة الوطنية ، ١٩٧٧ ٠
- عبد الحميد متولى : « مبادىء نظام الحكم فى الاسلام » ، القاهرة ، منشأة المعارف ، ١٩٧٨ ٠
- عبد الله فهد النفيس : « عندما يحكم الاسلام » ، لندن ، مكتبة طه ، ١٩٧٩
- عبد الكريم الخطيب : « الخلافة والامامة ديانة وسياسة » - « دراسة مقارنة للحكم والحكومة » ، بيروت ، دار المعارف للطباعة والنشر ، ١٩٧٥ ٠
- محمد المبارك : « نظام الاسلام الحكم والدولة » ، بيروت » دار الفكر ١٩٧٤
- محمد فاروق النبهان : « نظام الحكم فى الاسلام » ، الكويت ، مطبوعات جامعة الكويت ، ١٩٧٤ ٠
- أبو الأعلى المودودى : « نظرية الاسلام السياسية » ، الكويت ، مكتبة المنار - دون تاريخ اصدار ٠